المسلمون وقضية فلسطين

أبو الحسن علي الحَسني النَّدْوي

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون وقضية فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : ثقافة إسلامية

العنوان : المسلمون وقضية فلسطين

التأليف : أبو الحسن علي الحسني الندوي

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 224

القياس : 14×20

نوع التجليد : غلاف

الوزن : 210 غرام

التنفيذ الطباعي : مطبعة هادي برمس

التجليد : مؤسسة الشرق الأوسط للتجليد



دمشـــق - حلبـــوني - جـادة ابن ســـينا - بناء الجـ

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 502

بـيروت - بـرج أبي حيـدر - خـلف دبـوس الأصلي - بناء ال

ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 4459

ww.ibn-katheer.com • info@ibn-katheer.com

مقدّمَة الكتاب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

أمّا بعد : فليست النكباتُ ، والكوارثُ العظيمةُ ؛ التي تُصابُ بها الأمم والبلاد مفاجآتٍ ، أو مجرّد مصادفاتٍ في نظر المطَّلع على سنن الله في خلقه ، ونواميس الفطرةِ التي خلقها الله ، والمتدبِّر للقرآن ـ الكتاب المعجز الخالد ـ والمتدبِّرِ لتاريخ الأمم ؛ بل هي الحلقةُ الأخيرةُ الواضحةُ ، والنهايةُ الطبيعيةُ الحتميّةُ لسلسلةٍ طويلةٍ من الحوادث ؛ التي لم ينتبه لها في أوانها إلا القليلُ النادرُ ؛ الذين رزقهم الله الفطنة الدقيقة ، والفراسة الصادقة ، وهم الذين قال عنهم : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] .

وليست هذه النكباتُ ، والكوارثُ إلا نتيجةَ عواملَ كثيرةٍ ؛ أكثرُها داخلية نفسية ، كانت تتفاعل ، وتعمل عملها الطبيعي في حياة الأمة ، والمجتمع منذ زمن طويل ، وكان الذي قد عرف طبيعة هذه العوامل ، وقوّةَ تأثيرها يستطيعُ أن يتكهَّن بمصير هذه الأمة ، والمجتمع تحت ضغطِ هذه العوامل ، من غير نبوءةٍ ، أو كهانةٍ ، أو عبقريةٍ ، أو ألمعيةٍ ، كأنَّه يقرأُ في كتاب ، أو يطالِعُ في صورة ، أو يحكي قصةً

ماضيةً ، كالذي عرف أوان المطر ، ورأى مقدِّماتِه وطلائعَه ، فتنبّأَ بنزولِ المطرِ ، وقد يحدد له وقتاً لا يتخلَّفُ إلا في النادر ، وما ذاك إلا بمعرفته لتغيُّراتِ الفصول ، وأحكامَها ، وطبيعةِ الإقليم ، وعلم الجو ، وبتجاربه الواسعة ، كما كان يفعلُ ذلك البدوي المحنَّكُ في بادية العرب قديماً ، والعالِمُ الفلكيُّ في المراصد الحديثة في هذا العصر .

فلم تكن كارثةُ استيلاء الصليبيين على القدس في القرن الخامس الهجري ، ولم تكن حادثةُ استيلاءِ التتر ، والمغول على بغداد ، ثم على العالم الإسلامي في القرن السابع من فلتات الدهر ، أو عثرات الجُدود[١] ، لا أول لها ولا آخر ، كصاعقةٍ تنزِلُ على قومٍ من غير أن يسبقَها نذيرٌ ، أو كحوادثِ الحريقِ المفاجئة التي تحدث في بيتٍ كبيرٍ ، أو حيٍّ من الأحياء .

بل بالعكس ، كانت هاتان الحادثتان الحلقةَ الأخيرةَ ؛ التي انتهت إليها سلسلةٌ طويلةٌ من الأمراض الخُلقية ، والانحرافاتِ الطائشة ، والتصرّفاتِ الأثيمة ، والمغالطاتِ المتصلة ، والأوضاع غير الصالحة للبقاء في كلِّ مكان ، وزمان ، وفوق كل ذلك حياة لا يرضاها الله ، ورسوله ﷺ ، ولا يوافق عليها الدين الصحيح ، والعقل السليم .

ومن قرأ كُتبَ التاريخ ، والسِّيَر ، والتراجم ، والشعرَ ، والأدبَ ،

---

(١) جمع جَدّ : وهو الحظ .

وما يُلقي الضوء على أخبار ذلك المجتمع الذي وقعت فيه هذه الكارثةُ ، واتجاهاته ، وميوله ، ككتب التاريخ ؛ التي قُيِّدت فيها أخبارُ كلِّ سنة ، وحوادثها الكبيرة ، وقرأ التاريخ الاجتماعيَّ لبغدادَ في عصرِ سقوطها ، وقبل سقوطها ؛ عرفَ : أنَّ زحفَ التتر الوحوش على بغداد ، وتخريبهم لها لم يكن خبطَ عشواء ، إنَّما هو تقدير العزيز العليم .

وحسبك أن تقرأَ ما يقوله أبو الحسن الخزرجي في أهل بغداد قبل أن يستولي عليهم التتر :

« واهتمُّوا بالإقطاعات ، والمكاسب ، وأهملوا النظرَ في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوزُ من الأمور الدنيوية ، واشتدَّ ظلمُ العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم »[١] .

وما يقوله قطبُ الدين الحنفي الهندي المكي يصفُ أهلَ بغداد في زمن المستعصم :

« . . . مرفَّهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة ، وشراب ، واجتماع أحباب ، وأصحاب ، فما كابدوا حرباً ، ولا دافعوا طعناً ، ولا ضرباً »[٢] .

---

(١) العسجد المسبوك .

(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص١٨٠ الطبعة الأوروبية .

وكذلك من عرفَ **الشرق العربي الإسلامي** ؛ الذي يسمِّيه الأوروبيون (الشرق الأوسط) أو (الشرق الأدنى) عن كَثَب[1] لا عن كُتبٍ ، وعاشَ فيه كأحدِ أبنائه ، وتقلَّب في عواصمه ، وبيئاته ، وطبقاته بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧م :

* ورأى تردُّدَ الحكومات العربية في سياستها ، وضعفَ إرادتها ، وخضوعها للدول الأوروبية الكبرى ، وارتباطها بإشاراتها .

* ورأى أخلاق الرؤساء ، والقادة ، ومن بيدهم الحلُّ والعقدُ ، ورأى إخلادهم إلى الراحة ، وإيثارَهم للذة ، والمنفعة .

* **ورأى بصفة خاصة في مصر** ـ التي كانت تتزعم العالم العربي ، وتقود الحركةَ الفكريّةَ ، والأدبيةَ ، والعلميةَ ، والدينيةَ ـ **عبثَ الأُدباء ، والكتّاب ، والموجّهين** بالأسس الدينية ، والقيم الخلقية ، والاجتماعية ، والمقرَّرات التاريخية ، وتسخيرهم لطاقة الأدب ، والأقلام لتقويضِ دعائم الحياة الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وبعث فوضى فكرية لا معروفَ فيها ، ولا منكر ، ولا حقَّ فيها ، ولا باطل ، إنَّما هي انتهازيةٌ ، وأَبيقوريةٌ ، وإقليميةٌ ، وفرعونيةٌ ، وعاميةٌ ، وفرنجيةٌ ، وترويجَهم لأدبٍ يسمِّيه القرآن : ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ ﴾ [الأنعام : ١١٢] وحملتهم المنظَّمة لغرسِ الشكِّ ، والاضطرابِ في العقائد ، والشذوذِ في الأخلاق ، والميول ، والانحرافِ في

(١) عن كثب : عن قرب .

الأذواق ، والطبائع ، والجبنِ في النفوس ، والقلوب ، والانفعاليةِ في الإرادات ، والتصرفات ، والغرامِ بالتسلية ، والمتعة الرخيصة في أدقِّ الساعات ، وأحلكِ الأيام .

* ورأى إحجامَ العلماءِ ، وقادة الدين عن قول الحق ، ونقد الباطل ، والشهادة بالقسط .

ورأى خضوعهم للمثل العليا الزائفة ؛ التي خضع لها عُبّاد المعد ، والبطون من وجوب ارتفاع مستوى المعيشة ، وإرضاء الأهل ، والأسرة ، وتحقيق مطالبها ؛ ولو من غير حلٍّ .

* ورأى افتتان العامة ، والطبقات الكادحة بالملاهي ، والمعازف ، والأغاني ، وبكل ما تتمتع به الأُذن ، والعين ، والخيال . والتقاء هذه الطبقات كلها ـ على اختلاف مستوياتها ، وثقافاتها ـ على حُبِّ الحياة ، وكراهية الموت ، وبُعدَها عن كل مغامرة وإقدام . . .

* من رأى ذلك كله ، وتحققه ، وعاش فيه ؛ جزم **بأن هذه الشعوب لا تستطيع أن تحتمل أقل صدمة تأتيها من الخارج ، ولا تستطيع أن تدافع عن دينها ، وشرفها ، ومقدساتها ، وكيانها .**

وقد فاض ذلك على قلم بعض الكتَّاب ؛ الذين رزقهم الله حظاً من تدبُّر القرآن ، ومعرفة سنن الله ، ونواميسه ، وتجارب الأمم ، وعلى ألسنة بعض الخطباء ؛ الذين أنطقهم الله الذي أنطق كلَّ شيء . فتنبؤوا

بالنتيجة المحتومة لهذه الأوضاع ، وأنذروا قومهم بدنوِّ الكارثة ، ولم تكن نبوءةً ، ولا كهانةً ، ولم تكن عبقريةً ، ولا ألمعيةً فائقةً ، إنَّما هو استنتاجٌ سليم ، وتوصل من الأَسباب إلى المسببات ، ومن المبادىء ، والمقدمات إلى النتائج ، والغايات .

وقد كانت نكبة الخامس من حزيران ١٩٦٧م قمةَ ما وصل إليه هذا الفسادُ ؛ الذي أشرنا إليه . فتنبه لها كلُّ أحدٍ ، ورفعت الغشاوة عن كلِّ عينٍ ، وفزع لها العالم العربي ، والعالم الإسلامي ، يبحثون عن أسبابها ، والعوامل التي أدت إلى هذه النتيجة المشؤومة ، وسلكوا فيها طرائقَ قِدَداً[١] ، ومناهجَ مختلفة ، وكادت تكوِّن هذه البحوثُ والكتاباتُ مكتبةً جديدةً يصعبُ استعراضها ، والإحاطة بها .

وقد سبق لمؤلف هذا الكتاب أن بحثَ في هذا الموضوع قبلَ وقوع هذه المأساة في شكلها النهائي بعدّةِ سنين ، وجرت على قلمه وعلى لسانه بعضُ الحقائق التي تحقّقت فيما بعدُ ، لأنَّ القضيةَ لم تكن غامضةً ، ولا ملتويةً ، وإنَّما كانت تحتاج إلى شيءٍ من التذوّق للقرآن ، وشيء من معرفة طبائع الأشياء ، والاطلاع على ما يجري في هذه المنطقة التي تقع عليها مسؤولية الدفاع عن هذه القضية .

ثم وقعت الواقعة ، فجعلها موضوع تفكيره ، وبحثه ، وكتاباته ، وقد صدرت عن قلمه ولسانه عدّةُ مقالاتٍ ، ومحاضراتٍ نُشرت في

---

(١) قدداً : مذاهب متفرقة .

وقتها ، وتداولتها الأيدي ، والتزم أن يكون كلُّ ذلك في ضوء القرآن ، والنواميس الإلـٰهية ، والسنن الأزلية ؛ التي بيَّنها القرآن ، وشهد بها تاريخ الأمم ، وأن يكون كل ذلك تصويراً للواقع الذي تعيش فيه هذه الأمة من غير مبالغة وصناعة ، ومن غير تفاؤل وتشاؤم ، ويضع أصابع الفكر ، والرأي على الأمراض الحقيقية ، ومواضع الضعف والعلة الأصيلة في الشعوب ، والمجتمعات العربية والإسلامية ، وعلى علاجها الحاسم .

وهي تختلف في الزمان ، والمكان ، وتنقسم إلى مقال بالقلم ، وحديث باللسان ، وتربط بينها وحدةٌ جامعةٌ ، وهي : محاولة الاهتداء إلى الأسباب الحقيقية ، والإشارة إليها ، والتحذير منها بصراحة ، لا غموض فيها ، ولا التباس ، ولا مداهنة فيها ، ولا نفاق .

وقد بدا للمؤلف أن يجمع هذه المقالات ، والمحاضرات كلها في مجموع واحد ، يسميه : (المسلمون وقضية فلسطين) وينشره للقارىء العربي الكريم ، عسى أن تكونَ فيه إنارةُ سبيلٍ ، أو إثارةُ جانب من جوانب التفكير ، وحملٌ على استئنافِ السفر من جديد ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

ومعذرةٌ إلى القارىء الكريم إذا وجدَ بعضَ المعاني ، واللفتات مُعادةً مكررةً في عدد من المحاضرات ، وقد كانت البيئات التي تُلقى فيها هذه المحاضرات تختلفُ ، وتتنوَّعُ ، فيقتضي المقام ، والزمان أن تتكرَّر هذه المعاني ، وأن تعاد هذه اللفتات من جديد ، وفي ذلك تقليدٌ

لأسلوبِ القرآن الكريم ، وتطبيقٌ لأساليبِ الدعوةِ والإرشاد ؛ التي جرى عليها الدعاة ، والخطباء من الزمن القديم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب : ٤] .

أبو الحَسَن النَّدْوي

المحاضرة الأولى

التربية والأخلاق ٱلَّتِي مَهَّدَتْ لِلتَّخَاذُلِ فِي فِلَسْطِيْنَ

لم يزدد المسلمونَ إلا ضعفاً ، ولم تزددْ أخلاقُهم على مرِّ الأيام إلا انحطاطاً ، وتدهوراً ، ولا أحوالهم ، وشؤونهم إلا فساداً ؛ حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري[١] أمةً جوفاءَ ، لا روحَ فيها ، ولا دم ، وكانوا كصرحٍ عظيمٍ من خشبٍ منخورٍ قائمٍ ، لا يزالُ يؤوي الناسَ ، ويهول من بعيد ، أو كدَوْحة[٢] قد تآكلت جذورُها ، ونُخر جذعُها العظيم ، ولم تنقلع بعدُ ، وأصبحتْ بلادُهم مالًا سائباً ، لا مانعَ له ، وأصبحتْ دولهم فريسةً لكلِّ مفترس ، وطُعمةً لكلِّ آكل ، وحقَّ قول النبي ﷺ فيهم :

« يوشِكُ الأممُ أن تداعى عليكم ، كما تداعَى الأكلةُ إلى قصعتها » .

---

(١) يبتدىء هذا القرن بسنة ١٨٨٣م .

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة .

فقال قائل : أو من قلةٍ نحنُ يومئذٍ ؟

قال : « بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السيل . ولينزِعَنَّ اللهُ مِنْ صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم ، وليقذفَنَّ في قلوبكم الوَهْنَ » ؟

قال قائل : يا رسول الله ! وما الوَهْنُ ؟

قال : « حُبُّ الدنيا ، وكراهيةُ الموتِ »[1] .

واستمرَّ المسلمون على هذه الحال ، وزيادةٍ ؛ حتى أغارتْ عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي[2] الأمم الأوروبية النصرانية الجاهلية ، والمتحضرة الوحشية ، والكاسية العارية[3] ، فسلَّموها مفاتيحَ ملكهم ، واعتزلوا لمصلحتها عن قيادة العالم .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي منزلةً : أن وُجِدَ فيهم أفرادٌ خانوا أمتهم ، وشَرَوا[4] بلادهم للأجنبيِّ بثمنٍ بَخْسٍ دراهمَ معدودةٍ ، وتطوَّعوا في جنودِ العدو ، يفتحون بلادَهم للأجنبيِّ على حسابهم .

ولكنَّ هذا الهجوم الغربيَّ كان أشدَّ تأثيراً ، وأعمقَ أثراً ، وأبعدَ

---

(١) رواه أبو داود عن ثوبان ، رضي الله عنه .

(٢) يقابله القرن الثاني عشر الهجري .

(٣) المطَّلع على تاريخ حضارة هذه الأمم ، وطبيعتها يصدّقُ هذه الصفات المتناقضة .

(٤) شروا : باعوا .

مدىً من الهجوم الشرقي (المغولي والتتري) ، فكاد يخمِدُ كلَّ جمرةٍ في قلوبهم ؛ لم تخمدها العواصفُ طيلة هذه القرون ، وبقيتْ كامنةً في الرماد ، تخبو مرةً ، وتلتهبُ أخرى .

* * *

فتّشَ عقلاؤهم[١] عن منابع القوة الكامنة في نفوسِ المسلمين ، وقلوبهم ، فوجدوا : أنَّ أكبرَ منبعٍ للقوَّةِ ، والحياةِ هو الإيمان ، وشهدوا ما فعلَ الإيمانُ قديماً ، وما أظهرَ من معجزاتٍ ، وخوارقَ ، وما هو خليق بأن يفعل ، فعادوه ، وسلَّطوا على المسلمين عدوَّين ، هما أفتكُ بهم ، وأضرُّ بهم من المغول ، والتتر ، ومن الوباء الفاتك :

الأول : **هو الشك ، وضعفُ اليقين** ؛ الذي لا شيءَ أدعى للضعفِ والجبنِ منه .

الثاني : ما نعبِّر عنه **بالذلِّ النفسيِّ**[٢] وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذلِّ والهوان في داخل أنفسهم ، وفي أعماقِ قلوبهم ، ويزدرون كلَّ ما يتصلُ بهم من دينٍ ، وتهذيبٍ ، وأخلاقٍ ، ويستحيون من أنفسهم ، ويؤمنونَ بفضل الأوروبيين في كل شيء ، ويعتقدون

---

(١) أي : عقلاء الأعداء .

(٢) وهو ما اعتاد الكتَّاب العصريون بتسميته : مركب النقص (Inferiority Compiex) .

فيهم كلَّ خير ، ولا يكادون يعترفون بنقصهم ، وعيبهم في ناحيةٍ من نواحي الحياة ، ولا يصدِّقون بانهزامهم ، وفشلهم في ساعةٍ من ساعاتِ الدهر .

وإذا تمكَّنَ هذا الذلُّ من نفوسِ أمةٍ ؛ فقد ماتت ، وإن كنتَ تراها تغدو ، وتروح ، وتأكلُ ، وتعيشُ .

وابتلي المسلمون في هذه المرة ـ بتأثير الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية ـ بعبادةِ المادةِ ، وحُبِّ الدنيا ، والجري وراء النفع العاجل ، وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية على المبادىء والأخلاق شأن الأمم الأوروبية الجاهلية ، فكانت هذه الأخلاقُ ، وهذه النفسيةُ ، والتربيةُ مانعاً من الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، ومن تحمِّلِ المشاق ، وتجرُّع المرائر ، ومكابدةِ الأهوال ، والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح ، والعقيدة السامية .

كانت نتيجةُ هذا كلِّه أنْ ظهر جيلٌ في المسلمين متنوّر الذهن ، ولكنَّه مظلمُ الروح ، أجوفُ القلب ، ضعيف اليقين ، قليلِ الدين ، قليل الصبر ، والجلد ، ضعيف الإرادة ، والخلق ، يبيعُ دينه بدنياه ، وآجلَه بعاجله ، ويبيع أمته ، وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجاهٍ ، وعزةٍ وهمية ، ضعيفُ الثقة بنفسه ، وأمته ، عظيمُ الاتكال ، كثيرُ الاستناد إلى غيره : ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] .

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبنَ ، والوهنَ ، وصرفوا المسلمين عن الاتكالِ على الله ، ثم الاعتمادِ على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم ، والتكفُّف لديهم ، والالتجاء في مواقعِ الخطر إليهم .

وأطفؤوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيلِ الله ، والحمية للدين ، وأبدلوا الوطنية العليلة ، والجنسية الناعسة بجنونها الذي بعث الحكمةَ من مرقدها ، وأطلقَ العقل من إساره ، والذي تمكَّنَ مما لم يتمكن منه العقل ، والعلم منذ آلاف من السنين ، أبدلوا بهذا الجنون الحكيم عقلاً ناقصاً عليلاً ، لا يعرف إلا الموانع ، والعراقيل .

وقد ظهر هذا التحوُّل العظيم في العقيدة ، والنفسية ، والإفلاس في الروح ، والإيمان في شرِّ مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحةً للعالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري ، كما كان انكسارُ المسلمين ، وفشلُهم الذريعُ أمامَ الزحفِ التتري فضيحةً للعالم الإسلامي في القرن السابع .

فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية ، وتدافع عن وطنٍ عربي إسلاميٍ مقدّسٍ ، وعن القبلة الأولى ، وعن المسجدِ الثالثِ الذي تُشدُّ إليه الرحال ، وعن جزيرة العرب ، والأقطار العربية التي أصبحت مهددةً بالخطر الصهيوني ، فكانت حرب فلسطين دفاعاً عن حياةٍ ، وشرفٍ ، وعن دينٍ ، وعقيدةٍ .

وكان العالم العربي بأسره إزاء دويلةٍ صغيرةٍ لم تستقرَّ بعدُ ،

واتجهت الأنظارُ إلى مسرح فلسطين ، وانتظر الناسُ معركةً مثل (معركة اليرموك) أو وقعة مثل (وقعة حطين) .

ولماذا لا ينتظرونها ؛ والأمةُ هي الأمة ، والعقيدةُ هي العقيدة ، مع زيادة فائقةٍ في العَدَد ، والعُدَد ؟ !

فلماذا لا ينتصر العربُ وهم عالمون ؟ !

ولماذا لا يقضون على عدوهم ؛ وهو حفنة من المشرَّدين ؟ !

ولكنهم نسوا ما فعلت الأيام ، وما فعلت التربية ، وما فعلت الدول ، والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالأمة العربية في هذا العصر!

لقد تقدَّم العربُ إلى معركة اليرموك حقاً ، ولكن بغير الإيمان الذي تقدَّم به أسلافهم إلى هذه المعركة في العصر الأول .

لقدِ تقدَّموا إلى وقعةٍ كانت وقعةً حاسمةً كحطين ـ لو ظفر العرب فيها ـ ولكنهم تقدَّموا بغير الروح التي تقدَّم بها صلاح الدين ، وجنده المؤمن المجاهد .

تقدَّموا بقلوب خاوية تكره الموت ، وتحبُّ الحياة ، وأهواء متشتتة ، وكلمة متفرقة ، ويريدون أن يربحوا النصر ، ولا يخسروا شيئاً ، وأنْ يحافظوا على شرفهم ، ولا يخاطروا بشيء .

كلٌّ يعتقد : أن غيرَه هو المسؤول عن الحرب ، وعن الغلبة ، والهزيمة ، ثم هم يقاتلون ، وحبلهم في يدِ غيرهم ، إذا أرخى قليلًا ؛

تقدَّموا ، وإذا جرَّه ؛ تأخروا ، وإذا قال : حارِبوا ؛ حارَبوا . وإذا قيل : اصطلِحوا ؛ اصطلَحوا . وما هكذا يكتَسبُ الظفرُ ، ويقهَرُ العدو !

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِلْ ما هكذا يا سَعْدُ تُوْرَدُ الإبلْ

وبقي العالم متطلّعاً إلى ما قرأه في تاريخ الجهاد الإسلامي من روائع الإيمان ، وخوارقِ الشجاعةِ ، والصبرِ ، والاستهانةِ بالحياةِ ، والبساطةِ ، والبطولةِ ، والاستقبال للموت، والتمنِّي للشهادة، وحسن النظام ، وروح الطاعة ، والإيثار ، فلم يرَ من ذلك شيئاً، إلا لمعات ، وإشراقات للإيمان ، كانت تظهر من بعض المتطوِّعين في حرب فلسطين ، والإخوان المجاهدين ، تجنَّدوا ، وتطوّعوا للحرب بدافع الإيمان، والدفاع عن الإسلام، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة، ودفعتهم إلى ميدان الحرب، فشرَّفوا الدين، وأرعبوا القلوب، وأعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على أنَّ الإيمانَ لا يزال المنبعَ الفياض للقوة، والنظام، وأنَّ عنده من القوة، والنفوذ، والتنظيم وروح المقاومة ، والجهاد ما ليس عند الدول الكبيرة المنظمة .

لقد ثبت مما ذكرناه في هذا الكتاب ، وما سردناه من الأمثلة ، والأخبار ، وشهادات التاريخ ، ومشاهدات هذا العصر ـ وما حربُ فلسطين منا ببعيد ـ : أنَّ المدَّ ، والجزرَ في تاريخ الإسلام ، وأحوال المسلمين تابعان للمدِّ والجزر في الإيمان ، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وأنَّ منبعَ قوة هذه الأمة في باطنها ، وهو القلبُ ، والروحُ .

فإذا عمر القلبُ بالإيمان بالله ، ورسوله ﷺ واليوم الآخر ، وتزكَّت الروح بتعاليم الدين ، والأخلاق الإسلامية ، وجاشَ الصدرُ بالحمية الدينية جَيشانَ[(١)] المِرْجل[(٢)] ، وأخذ المسلمونَ عُدَّتهم من القوة المادية ، وأعدُّوا للعدوِّ ما استطاعوا ، وأدركوا ما عليه العالم مِنْ جَوْرٍ ، وظلمٍ ، ومن جهالةٍ ، وسفاهةٍ ، وضلالٍ في الدين ، والدنيا ، وعلموا : أنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئته يومَ جاء الإسلام ، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم : ٤١] فأشفقوا عليه ، ورأوا كأنَّ العالم في حريق ؛ ولا ماء إلا عندهم ، فسعوا به يطفئون النار ؛ التي عمَّت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذَّاتهم ، وتكدَّر عيشهم ، وطارَ نومهم ، وجُنَّ جنونهم ، **فعند ذلك يتحوَّلون قوة خارقة للعادة** لا يغلبها العالم ـ ولو سعى بأسره ، وجميع شعوبه ، وجنوده ، ودوله ـ ويصيرونَ قضاءَ الله الغالب ، وقدره المحتوم ، وكلمته العليا : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ـ١٧٣] ، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] [(٣)].

* * *

---

(١) الجَيَشان : الغليان .

(٢) المرجل : القِدر من النحاس .

(٣) المد ، والجزر في تاريخ الإسلام ، ص٧١ـ٨٣ ، طبعة دار القلم بدمشق ضمن سلسلة (كتب قيمة) .

المحاضرة الثانية

العوامل الأساسية لكارثة فلسطين

سادتي وإخواني[١] :

وفدتُ إلى الأقطار العربية العزيزة ؛ وقضيةُ فلسطينَ هي شغلها الشاغل ، وحديثُ النوادي ، والمحافل ، وإنَّها لجديرةٌ بأكثر من هذا ؛ لأنَّها قضيةُ الكرامةِ ، والشرف ، وقضيةُ الإيمانِ ، والعقيدةِ ، والفاصلةُ بين الموتِ ، والحياةِ ، وقد ساهمتُ ـ كفردٍ من أفرادِ هذه الأمة العظيمة ؛ التي نُكِبَتْ في فلسطين ـ في التفكير في هذه القضية ، والبحثِ عن أسباب الفشلِ العميقةِ الحقيقيةِ ، ورجعتُ إلى التاريخ ، فقارنتُ بين قضية فلسطين اليوم ، وبين المواقفِ الحاسمةِ في تاريخ هذه الأمة بالأمسِ ؛ التي خرجتْ منها ظافرةً منتصرةً ، وتساءلت :

---

(١) ألقى السيد الأستاذ أبو الحسن هذه المحاضرة على مدرج الجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) في التاسع عشر من شوال ١٣٧٠هـ الموافق ٢٣/٧/١٩٥١م، وقد استمع إليه فيها حشد كبير من الناس ، وكان في مقدمتهم علماء دمشق، وأساتذة الجامعة ، وأعضاء المجلس النيابي ، وبعض السفراء ، والوزراء ، وعلَّق عليها الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي ، رحمه الله تعالىٰ .

ما هي المفارقات بين الماضي ، والحاضر ؟

وكم بين الأول ، والآخر ؟

فخرجتُ من هذا التفكير ، والدراسة بنتائج أعرضُها عليكم ـ أيها السادة ـ كباحثٍ ، ورائدٍ ، وأعتقد : أنَّ جامعة عربية كالجامعة السورية ، التي تتكفَّل بإنشاء الجيل الجديد ؛ الذي سيواجه هذه المشكلة وجهاً لوجه ، أعتقدُ : أنَّها خيرُ مكانٍ للبحث العلمي ، والتفكيرِ العميقِ في هذه القضية .

إنِّي أتقدّمُ إليكم ـ أيها السادة ـ بقولي : إنَّ النتائج التي توصلتُ إليها قد تثيرُ العجبَ في أوساط كثيرة ، ولا تتَّفق مع ذلك المنهج الفكريِّ ، وأسلوب البحث ؛ الذي تعوّدناه في هذا الموضوع ، ولكنَّ أمانةَ التاريخ تدفعني إلى أنْ أقدِّمَها إليكم ، وأدعو إلى النظر فيها ، ومعالجتها في أول فرصة .

أعتقدُ ـ أيها السادة ـ : أنَّ أسبابَ نكبتنا أعمقُ ، وأبعدُ مدىً من الأسباب ؛ التي يشير إليها الباحثون في هذا الموضوع ، وأطولُ عمراً من قضية فلسطين نفسِها . فقد سبقتْ تلك الأسبابُ هذه القضية بكثير ، وبدأت تفعلُ فعلَها في كيانِ الأمة من زمنٍ بعيدٍ ، وقد تمَّ مفعولها في قضية فلسطين ، والذي انتبه لهذه العوامل الهدامة من قبلُ ؛ لم يفاجأ بالنتائجِ ، ولم يستغربْها .

إنِّي أرى علامةَ الاستفهام ترتسم على وجوهكم الكريمة ، فأقول من غير تأجيلٍ مزيد : إنَّ هذه الأسباب تتلخَّص عندي في ثلاثة وجوه :

١ـ ضعف الدافع النفسي ، والباعث الداخلي إلى الاستماتة ، والتفاني في سبيل العقيدة ، والمبدأ .

٢ـ طغيان العقل على العاطفة ، والحذر من المغامرة ، واقتحام الأخطار .

٣ـ فقدان الشخصية المركزية ؛ التي تملك القضيةُ عليها مشاعرها ، وتفكيرها ، وتصبح همَّها الشاغل ، وتستولي عليها استيلاءً كاملًا .

واسمحوا لي الآن بشرحِ هذه الوجوه بالترتيب :

١ـ إنَّ قانون الجاذبية معلومٌ عند الجميعِ ، هذا القانون الذي يقتضي أن يصلَ كلُّ جسمٍ إلى مركزه ، ويهبطَ إلى الأسفل ، ولكننا نرى قوىً كثيرةً تعارض هذا القانون ، وتثورُ عليه ، وترفعُ أجساماً كثيرةً إلى الأعلى ، ولكن ينبغي لنا ألا ننسى : أنَّ كلَّ ما نرى خلاف ذلك هو لعارض يزولُ بزواله ، فإذا تُركت الأجسامُ ، والأثقالُ وشأنَها ؛ هبطت إلى مركزها ، وسقطت .

كذلك النفوس ـ أيها السادة ـ فُطِرَت على حبِّ الحياة ، والراحة ، ولا تزال تُؤثِر الحياة ، ولا تعدل بها شيئاً ، وهي أسرعُ إليها من الماء إلى الحدور ؛ حتى يأتي قاسِرٌ قوي ، فيحوِّلها من مجراها الطبيعي ، فتصبح تُؤْثِرُ شيئاً أعلى من الحياة على الحياة ، وتُؤْثِرُ في سبيله المتاعبَ على الراحة ، والصعوبةَ على السهولةِ .

إنَّ حبَّ البقاء والخلود غريزةٌ إنسانيةٌ لا تنفكُّ عنا ، ولعلَّها أقوى

الغرائز الإنسانية ، وأوضحها . وقد فطنَ لها عدوُّ الإنسان الأقدم[١] ، ورأى : أنَّها أضعف جانب في طبيعةِ الإنسان ، فضربَ على هذا الوتر الحساس ، وقال لأبي البشر : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه : ١٢٠] .

وسرعان ما انقاد لها ، واندفع إليها ، وليست المباني التاريخية الخالدة ، والآثار الباقية ، والأهرامات الشامخة إلا رمزاً لغريزة حُبِّ البقاء ، والخلود ، واستجابةً لها ، كما قال سيدنا هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأمته : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٢٩] .

إنَّ تاريخَ الإنسان ـ أيها السادة ـ قصةُ الجري وراءَ الحياة ، وأسبابها ، وحبّ البقاء ، والخلود ، والبحث عن أسباب السعادة ، والهناء ، والراحة ، والرخاء ، وصراع مستمر ، وكفاح جار في سبيل الاستئثار بها ، والحصول عليها .

ولكن تتخلَّلها فتراتٌ قد تطول ، وقد تقصر ، نرى فيها الإنسانَ يندفعُ إلى غايات أخرى ، يهونُ عليه الموتُ في سبيلها ، بل يطلبه ، ويجري وراءه ، كما لو كان يطلبُ الحياةَ ، ويجري وراءها ، ونرى فيها الناس يتهالكون على الموت في سبيل هذه الغايات ، كما يتهافت الفراش على النور ، ويتنافسون في أسبابه ، كما يتنافسون في

(١) إبليس لعنة الله عليه .

الأموال ، والأولاد .

هذه هي الفترات التي وجدت فيها شخصيات مثَّلت للناس حقائقَ آمن بها الإنسانُ ، كما آمن بالحياة من قبلُ ، وأحبَّها ، واندفع وراءها ، كما أحبَّ الحياة ، واندفع وراءها ، بل أحبها فوقَ الحياة ، وأكثرَ من النفسِ ، والروحِ ، والأموالِ ، والأولادِ ، فاستهانَ بكل ذلك في سبيل هذه الحقائق .

ومن المقرر : أنَّ الإنسان لا يتركُ شيئاً إلا لشيء أحبَّ إليه منه ، وأعزَّ لديه ، فلا يستهينُ بالحياة ، ولا يضحي بالمال ، والولد إلا لشيء أعزَّ عليه من الحياة ، وأحبَّ إليه من المال والولد .

إنَّ هذه الشخصيات تُحْدِثُ انقلاباً في اتجاه الطبيعة البشرية ، إنَّها توجِّهُ غريزةَ حبِّ البقاء والخلود إلى عالمٍ أوسعَ من هذا العالم الضيق ، وإلى حياةٍ أجدرَ بهذا الإنسانِ الطموحِ من هذه الحياة المقيدة المحدودة ، وإلى مثل المعاني الروحية ، والحقائق الغيبية ، فإذا هي أقوى سلطاناً ، وهيمنةً على النفوس ، والأرواح من اللذات ، والشهوات ، وأوضحَ ، وأثبتَ من الماديات والمحسوسات .

فيندفعُ آلاف من النفوس البشرية إلى هذه الحقائق ؛ وهي في طَيِّ الغيبِ ، ووراءِ الحسِّ ، والمشاهدة بإيمانٍ أقوى من إيمانِ الماديِّ بالماديات ، وبيقينٍ أشدَّ من اليقين الذي يقومُ على التجارب ، والمشاهدات ، وتكونُ أحرصَ على الموت في سبيلها من عُبَّاد الحياة على الحياة ، **هذه هي شخصيات الأنبياء ، وهذه هي فترات النبوَّة ،**

والإيمان في التاريخ الإنساني ،وهي لمعاتٌ مبعثرةٌ على صفحات التاريخ ، تكتنفها ظلمات كثيفة طويلة .

وأطولُ هذه الفترات ـ أيها السادة ـ وأعمقُها أثراً ، هي الفترة التي انبثقت من بعثة سيدنا محمد النبيِّ العربيِّ ﷺ ، هي الفترةُ التاريخيةُ التي أحدثتْ أعظمَ تحوُّل في الأذواقِ ، والرغباتِ ، وأعظمَ انقلابٍ في الاتجاهات .

تُعرِّف الناسَ بغايات أسمى ، وأعزَّ من الحياة ، فاستهانوا بالحياة في سبيل الوصول إلى هذه الغايات ، كما يستهينُ الإنسانُ بالخزف ، والحصى في سبيل الجواهر الغالية .

تعرَّف الناس فيها بحياةٍ حقيقيةٍ خالدةٍ ، حياة لا نهاية لها ، ولا حزن فيها ، ورأوا : أن الشهادة قَنْطَرة إليها ؛ فسارعوا إلى عبور هذه القنطرة ، وأحبُّوا كلَّ ما يقرِّبُ إليها ، وكرهوا كلَّ ما يباعِدُ منها .

ثملوا بالشوق إلى الجنة ، والحنين إليها ؛ حتى استطالوا الحياة ، واستبطؤوا الشهادة .

يقول الرسول ﷺ : « قوموا إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض » فيرمي عُمير بن الحُمَام الأنصاريُّ تمراتٍ كان يأكلهنَّ ، ويقول :

لئن أنا حَييتُ حتى آكلَ تمراتي هذه ؛ إنّها لحياة طويلة ! ويقاتل ، فيقتل(١) .

---

(١) كان ذلك في غزو بدر . انظر « السيرة النبوية » للمؤلف ، ص٢٢٣ ، ط . دار ابن كثير بدمشق .

ويبايعُ رجلٌ من الأعراب ، ويقول للنبيِّ ﷺ : اتبعتُك على أنْ أُرمى هاهنا بسهم ـ ويشيرُ إلى حلقِه ـ فأموتَ ، فأدخل الجنة[١] .

ويلحُّ عمرو بن الجموح ـ وهو أعرجُ شديدُ العرج ـ على أن يشهدَ الحربَ ، فيمنعه بنوه ، ويريدون أن يكفُّوه ، ويقول له الرسول ﷺ : « أمّا أنتَ فقد وضعَ الله عنك الجهاد ! » .

فيقول : واللهِ إنِّي لأرجو أن أستشهدَ ، فأطأ بعرجتي هذه الجنة ! ويُقتلُ يومَ أُحدٍ شهيداً[٢] .

ويسري هذا الشوق إلى الأحداث ، والغلمان ؛ الذين عُرفوا بحب اللهو ، والراحة ، والفرار من الخطر .

فهذا عُمير بن أبي وقاص يتوارى في الصفوف لئلا يراه النبيُّ ﷺ فيردَّه لصغره ، ويراه أخوه الأكبر سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، فيقول : ما لك يا أخي ! لأيِّ شيءٍ تتوارى ؟

فيقول : أخافُ أن يردني رسول الله ﷺ فإنِّي صغير ، وأنا أحبُّ الخروجَ ، لعلَّ الله يرزقني الشهادة .

ويقع ما يخافه عمير ، فيراه الرسول ﷺ فيردُّه لصغره ، وهنا يلجأُ الولدُ إلى الشفيع القديم الذي لا يردُّ الكرامُ شفاعته ـ وهو البكاء ـ ويرقُّ

(١) كان ذلك في غزوة خيبر . المصدر السابق ، ص٣١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٣٦ .

له رسول الله ﷺ ـ وهو الرقيق الرفيع ـ فيأذن له ، ويعلِّق له أخوه الأكبرُ السيفَ ، فإذا محمله أكبرُ من جسمه ، فيعقد فيه عقدةً ، ويقاتل ، ويُقتلُ شهيداً[١] .

وهذا رافع بن خَدِيج ـ وهو دونَ الخامسة عشرة من سنِّه ـ يتطاول من شِّدة الشوق ؛ ليظنَّ الناسُ : أنه كبير قد بلغَ سِنَّ القتال ، ويردُّه رسول الله ﷺ ، فيشفع له الوالد ؛ الذي عُرِفَ من فجر التاريخ الإنساني بالحرص على حياة الولد ، والضنِّ بها ، يشفع له ، ويزفُّه إلى ميدان القتال بيده .

ويرى ذلك سَمُرة بن جندب ـ وهو من أتراب رافع ـ فيقول : كيف تردني يا رسول الله وقد أجزتَ رافعاً ، ولو صارعتُه ؛ لصرعتُه ؟ ! فيأمر رسول الله ﷺ بالمصارعة ، فيصرعُ سَمُرةُ رافعاً ، فيسمح لهما بالدخول في صف المجاهدين[٢] .

هؤلاء هم الصغار الذين كانوا يتقدَّمون إلى الحرب ، ويتحيَّلون للدخول فيها ، ويتنافسون فيها .

وأنتم أيها السادة المعلِّمون ، ويا رجال التربية تعلمون كيف تستدرجون الصغار إلى المدرسة ؛ وهي ليستْ ساحةَ القتال ، خصوصاً في هذا العصر ؛ الذي حرَّمتم فيه التأديبَ الجسماني ،

---

(١) كان ذلك في غزوة بدر . انظر المصدر السابق ، ص٢١٦ .
(٢) كان ذلك في غزوة أحد . انظر المصدر السابق ، ص٢٣٢ .

والعقابَ المؤلم ، فما بال ساحة الحرب ؟ ! والولد العربيُّ كان يعرِفُ : أنَّ القتالَ جدٌّ لا هزلٌ ، ولعب بالسيوف ، والرماح ، لا بالكرات ، والأعواد ! لقد درستم التاريخَ الإنسانيَّ دراسةً واسعةً ؛ فهل عرفتم في دور من أدواره أمثال هؤلاء الغلمان ، وأمثال أولئك الشيوخ ، والشباب ؟ ! وهل وجدتم في عصرٍ من عصوره هذا التنافسَ في القتال ، وهذه الاستهانةَ بالحياة ، وهذه الجسارةَ على الموت ؟ !

هذه هي القوة التي انتقلت إلى العرب من تعاليم الرسالة ، فقهروا بها الأمم ، ودوَّخوا بها العالم ، وفتحوا نصفَ المعمورة في نصف قرن ، وأخضعوا بها أمماً لم تكن لتخضعَ للقوة الحربية .

فقد أخضعوا بها الرومان ، والفرس ، وهم يفوقونهم ألفَ مرَّة في العَدَد ، والعُدَد ، وأخضعوا بها البربر في الغرب ، والترك ، والأفغان في الشرق ، والزطَّ ، والتكاكرة في السند ، وهي أمم لم تعرف الخضوعَ من زمنٍ بعيدٍ ، ولم تَدِنْ لفاتح من قرون ، ذلك ؛ **لأنَّ العرب كانوا يقاتلون ؛ وهمُّهم الشهادة ، وأما أعداؤهم ؛ فهمهم الحياة ، وشتَّان بين من يطلب الموتَ ، وبين من يطلب الحياة ، وبين من يسعى إلى الموت بقدميه ، وبين من يدفعه براحتيه ، وبين من يقاتل ليموت ، ويكرم بالشهادة ، وبين من يدافع ليعيش ، وينعم بالهناء ، والسعادة!**

لذلك كان العربُ منتصرين في كلِّ معركةٍ ؛ لأنَّ من لا يبالي بالموت ينتصرُ دائماً على من يعبد الحياةَ ، ويقدِّسها ، ويقيِّد نفسه بها .

لقد كان مصدرُ هذه القوة هو الإيمان ـ أيها السادة ـ الذي رفعَ النفوسَ من حضيض الشهواتِ ، والحرصِ على الحياة ، والعضِّ عليها بالنواجذ ، والحذرِ من الموت إلى أوج طلب الشهادة ، والاستهانة بالحياة . لقد كانَ هذا الإيمانُ قد قهر في العرب تلك الطبيعة البشرية ؛ التي دائماً تحرصُ على الحياة ، وتعافُ الموتَ ، وتنجذب إلى الراحة ، والسهولة .

انحطَّ العربُ مع الزمان في هذه القوة المعنوية ؛ التي امتازوا بها عن سائر الأمم ، ودبَّ إليهم داءُ الأمم من قبلهم : الحرصُ على الحياة ، والإخلادُ إلى الراحة ، والاسترسالُ في الشهوات ، وجنت عليهم المدنيَّةُ العجميةُ ، فرزأتهم في فروسيتهم ؛ التي اشتُهروا بها في الجاهلية ، والإسلام ، وتركوا حياةَ البساطةِ ، والجلادة ؛ التي كانت من كبار أنصارهم على الأمم المريضة المسلولة في القرن السادس المسيحي ، إلى حياة التنعُّم والبذخ ، والرقَّة .

ثم هجمتْ عليهم في العهد الأخير **الحضارةُ الغربية** ،وفلسفة الحياة المادية ، فاكتسبوا منها تقديساً للحياة ، وتقديراً زائداً للمادة ، وضَعُفَت بتأثيرها الدوافع النفسية إلى المخاطرة بالحياة ، وإيثار الآجلة على العاجلة ، وما خلَّفَ هذا الإيمانُ شيئاً يسمو بنفوسهم ، ويربط وحدتهم ، فأصبحوا لا إيمان يشعل قلوبهم ، ولا مبدأً جامع يجمَع شملهم ، ولا غاية سامية تقهر شهواتهم ، وحزازاتهم .

وأما الأمم المادية ؛ فإن كانت قد أفلست في الإيمان ؛ لكنَّها تعوّضت منه مبادىء أخرى ، ومطامحَ ، وغاياتٍ ملكت عليها مشاعرها ، وتفكيرها ، وقهرت شهواتها ، وتغلَّبت على نزعاتها الفردية ، ووحَّدت أفرادها ، وجمعت شتاتها ، فأصبحت هذه الأممُ تستميتُ في سبيل هذه المبادىء ، والغايات ، وتقاتلُ تحت رايتها ، وتنسى لها أحقادها ، وخلافاتها الداخلية ، وترتفع لأجلها عن سفاسف الأمور ، والأنانيات الحقيرة ، والأغراض الخسيسة ، تضحِّي في سبيلها بنفوسها ، ونفائسها ، وتسترخص في ذلك كلَّ عزيز ، وغالٍ ، وأصبحتْ هذه الغايات والمطامع ـ على علاتها ـ إيماناً .

وعقيدة هذه الأمم أكسبتها روحاً ، وقوةً معنويةً جديدةً ، وهذا الإيمان وإن كان لا يقاوم الإيمان العميقَ ؛ الذي يقوم على تعاليم النبوَّة ، ويتركز على فكرة الآخرة ، ويحلُّ في قرارة النفس ، فإنَّه لا محالةَ ينتصر بقوته ، وجِدَّته على صورة الإيمان المجردة عن الحياة ، والروح .

وإنَّ هذه الحياة ـ وإن كانت جاهلية غير مؤسسة على الإيمان ، والتقوى ـ تنتصر بنظامها ، وتجرُّدها على الحياة ـ التي لا غاية لها ، ولا رسالة ـ حياة الأغراض ؛ والشهوات ، حياة المنافسات ، والمنازعات ، حياة المطامع الفردية ، والطموح الشخصي ، حياة الضغائن ، والأحقاد ، حياة العشائر ، والأفراد .

ليس النصرُ ـ أيها السادة ـ بالتفوق في الأسلحة ، والعتاد ، والبراعة في الأساليب الحربية ، وطرق الدعاية . إنَّ النصرَ بالتفوق في الإيمان بالمبادىء ، والغايات ، وتغلغلها في نفوس المحاربين ، والتضحية في سبيلها ، وفي قوة الدوافع النفسية ، والبواعث الداخلية إلى الحرب ، والموت في سبيل المبدأ ، والعقيدة .

وقد ضعفت هذه الدوافع النفسية إلى الجهاد ، والتضحية ، وذبلت أصولها في قلوبنا ، وانقطع عنها الغذاء ، والريُّ من زمان .

فالمهم الأهم هو إيجاد هذه الدوافع ، وتغذيتها ـ إن وُجِدت ـ مهما كلَّفنا ذلك من ثمنٍ ، وتعبٍ .

إنَّ ضعفَ هذه الدوافع النفسية أكبر خطراً في حياة الأمة ، وأعظم خسارةً لها ، وزوالها كارثة أشد من كارثة الأندلس ، وفلسطين ، فإنَّ وجودها كفيلٌ باسترداد كلِّ ما فقدناه في الماضي ، والحاضر ؛ إذا وجد التوجيه الصحيح ، والقيادة القوية .

أما إذا فقدنا هذه المحركات النفسية القوية النزيهة التي أوجدها الرسول ﷺ بجهاده الطويل ، وتعاليمه النبوية ، وتربيته الحكيمة ، وشخصيته الفذَّة ؛ فقد فقدنا رأس المال ، وضيعنا مفتاح الحياة ، والقوة ، وأصبحنا لا نأمنُ على الموجودِ ؛ فضلاً عن أن نطمعَ في المفقود .

ولا سبيل إلى إيجاد هذه الدوافع في ساحة القتال ؛ أو في ساعة

القتال ، لأنَّ القتال أوان الحصادِ لا الزرعِ ، فمن لم يزرع ؛ لم يحصد ، وقد أهملناها ، وأهملنا أرضَ القلوب ؛ التي تنبت فيها من مدة طويلة ، وكان كلُّ اشتغالنا بالعقول ، والأجسام ، والمظاهر ، والكماليات .

واسمحوا لي أن أقول بصراحة : إنَّ نظام التعليم عندنا لا يخلو من التبعية ، والمسؤولية أيضاً ، فإنَّه ما زال يعتني بالمواد ، والمعلومات أكثر مما يعتني بالمحركات ، والغايات ، وقد تبيَّنَ : أنَّ تكديس المعلومات ، وتوفير الوسائل ، والآلات من غير المحركات الصحيحة ، والغايات الرشيدة يؤدي بالمجتمع ، والحضارة في النهاية إلى الانتحار . وتلك نقطةُ الضعفِ في الحضارة الأوروبية ، وداؤها العُضالُ ؛ الذي سوف يودي بحياتها ، وأخشى أن تكون نقطة الضعف ، وسبب الفشل في حياتنا كذلك ، وما فلسطين إلا نذيرٌ لخطرٍ شديدٍ ؛ إن لم يُتدارك .

* * *

وأتحدّث إليكم الآن ـ أيها السادة ـ عن النقطة الثانية ، وهي :

جناية العقل على العاطفة :

لا يستطيع أحد أن يقلِّلَ من قيمة العقل ، وأن ينكرَ فضله ، وأن يعارضَ الرويَّة ، والأناة في قضايا الأفراد ـ فضلاً عن الأمم ـ ولكن مع كلِّ احترامي للعقل ، واعترافي بما له من فضل أتجاسَرُ ، وأقول :

لا بدَّ لكلِّ أمة من مغامرات ، ومخاطرات في بعض الأحيان ، وأن لا تعتمد على العقل وحده ، فإنَّ العقلَ ـ ومعذرتي إلى العقلاء ـ عُرِفَ من قديم الزمان بالتثبيط ، والتخويف ، والتأجيل ، فكم ثبَّط أقواماً عن المعالي ! وكم فعلَ فِعل المكبِّرة في تضخيم الأخطار ! وكم أجَّلَ الفتحَ ، والظفر ! وكم ضيَّع الفرصَ ، وفوَّت المغانم !

إنَّ القلبَ له أن يستشيرَ العقل ، ويستعينَ به ، ولكن يحسن في بعض الأحيان أن يستبدَّ بالأمر ، ويتملَّكَ الزمام . فلا خيرَ في قلبٍ لا يثور أبداً ، ولا يستبدُّ ، وقديماً قال الشاعر(١) :

إنَّما العاجزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ

إذا نظرنا في تاريخ العالم رأينا : أنَّ أكثر الفتوح ، والوقائع العظيمة ؛ التي لا تزالُ موضع العجب يرجع الفضل فيها إلى العاطفة وروح المغامرة ، وأنَّ جلال هذا التاريخ ؛ الذي يملأ قلوبنا إيماناً ، وحماسةً ، وبهاءً من هذه المغامرات لو تجرَّدَ تاريخُنا عنها ؛ لكان بكتابٍ رياضيٍّ أشبه منه بكتاب تاريخ .

إنَّ العاطفة التي تستمدُّ قوتها من الإيمان تبتدىء حيث ينتهي العقل ، وتفعلُ ما يعجز عنه العقل . وإنَّ العقلَ يتَّهمها بالجنون ، والجهلِ ، والتهوُّرِ ، ولكنها خدمت العقلَ مراراً ، وأحسنت إلى العالم ، والحضارة أحياناً كثيرة ، فكم أغاثتِ العقلَ ؛ وهو ملهوف!

---

(١) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي .

وكم حررته ؛ وهو أسير! وكم انتصرت له ؛ وهو مظلومٌ! وكم أقامت دولةَ العلم! وكم حمتِ الحضارةَ ، وأنقذتها من براثن الوحوش ، والهمج! .

إنَّ صاحبَ الإيمان القوي يمضي ، ويغامر ، وينفذ إرادته ، ويقومُ العقل القاصرُ معوِّقاً منذراً بسوء العاقبة ، فإذا نجحَ المؤمنُ في مغامرته ، وعاد منها ظافراً منتصراً ؛ عاد العقلُ ، فبرّرَ فعله ، وأقام ألفَ دليل على صحته!

إنَّكم لا تنسون العهد الإسلامي الأول ، انتقل رسولُ الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، واشتدَّ الحالُ ، ونجم النفاقُ بالمدينة ، وارتدَّ من ارتدَّ من أحياءِ العرب حولَ المدينة ، وامتنع آخرون من أداء الزكاةِ إلى الصِّدِّيق ، ولم يبقَ للجمعةِ مقامٌ في بلدٍ سوى مكة ، والمدينة ، وأصبح المسلمون كما يقول عروة بن الزبير : كالغنم في الليةِ المطيرةِ الشاتيةِ ؛ لفقد نبيِّهم ﷺ وقلّتهم ، وكثرةِ عدوِّهم .

وأراد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ والحال هذه ـ أن يبعثَ جيش أسامةإلى الشام تنفيذاً لرغبة رسول الله ﷺ ووصيته . هنالك قام العقلُ معارِضاً ، وقال : لا! ليس من الرأي إقصاءُ هذا الجيش المنظم الوحيد ؛ وعاصمةُ الإسلامِ بارزةٌ للعدو ، عرضةٌ للغزو ، والنهب .

وقام أهل الرأي يقولون : إنَّ هؤلاء جلُّ المسلمين ، والعربُ على

ما ترى قد انتقضت بك ، وليس ينبغي لك أن تفرِّق عنك جماعةَ المسلمين .

وأبى أبو بكر إلا أن يجهِّزَ الجيشَ ، وقال : والذي نفسُ أبو بكر بيده لو ظننتُ : أنَّ السباعَ تخطَّفني ؛ لأنفذتُ بعثَ أسامة ، كما أمرَ به رسولُ الله ﷺ ولو لم يبقَ في القرى غيري ؛ لأنفذته !

وكان ما أراد أبو بكر ، وخرج أسامةُ بجيشه ، والعقلُ مقطِّبٌ جبينَه ، عاضٌّ بنانَه . فلما رجع أسامةُ ظافراً منتصراً ـ وكان لخروجه أحسنُ الوقعِ ـ غيَّر العقل موقفه ، وها هو ذا يقول الآن في التاريخ : « كان خروجُ أسامة ـ رضي الله عنه ـ في ذلك الوقت من أكبر المصالح ؛ والحالة تلك ، فساروا لا يمرون بحيٍّ من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم ، وقالوا : ما خرجَ هؤلاء من قومٍ إلا وبهم منعة شديدة ! فكفُّوا عن كثيرٍ مما كانوا يريدون أن يفعلوه »[1] .

إنَّ تاريخَ العرب ـ أيها السادة ـ حافلٌ بالمغامرات ، ولعلَّ العرب أكثر الأمم مغامرة ، وإنَّ هذه المغامرة لها فضلٌ في بناءِ هذه الحضارة ؛ التي نعم في ظلها العقل ، والعلم ، والإنسانية .

ومن أعظم هذه المغامرات ، وأشدها خطراً في تاريخ الحروب **سفرُ خالد بن الوليد رضي الله عنه** بجيشٍ كبيرٍ من العراق إلى الشام ، وقطعُه هذه المسافة الشاسعة المَخُوفة في خمسة أيام . قال

(١) « البداية والنهاية » و « والكامل لابن الأثير » .

المؤرخون : « كتبَ الصدِّيقُ قبلَ اليرموك إلى خالد بن الوليد أن يستنيبَ على العراق ، وأن يقفلَ بمن معه إلى الشام ، فسار مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمئة ، ودليلُه رافع بن عميرة الطائي ، وسلك به أراضٍ لم يسلكها قبله أحد ، واجتاب البراري ، والقفار ، وقطعَ الأوديةَ ، وتصعَّد على الجبال ، وسار في غير مَهْيَعٍ[1] ، وفي مفاوزَ[2] معطِشة ، فلمَّا فقدوا الماءَ ؛ نحروا النوق ، فشربوا ما في أجوافها من الماء ، وسقوا الخيل ، ووصل في خمسة أيام »[3] .

ولا يزالُ **اقتحامُ سعدِ بن أبي وقاص** ـ رضي الله عنه ـ بالجيش الإسلامي في دجلة من أعظم المغامرات في تاريخ العالم . قال المؤرخون : « وقف سعد أمام المدائن[4] ، ولم يجد شيئاً من السفن ، وتعذَّر عليه تحصيل شيءٍ منها بالكلِّية ، وقد زادت دجلة زيادةً عظيمةً ، واسودَّ ماؤها ، ورمتْ بالزبدِ من كثرةِ الماءِ بها . فخطبَ سعدُ الناسَ على الشاطىء ، وقال : ألا إنِّي قد عزمتُ على قطعِ هذا البحرِ إليهم .

فقالوا جميعاً : عزمَ الله لنا ، ولك على الرشدِ ، فافعل !

---

(١) المهيع : الطريق الواسع .

(٢) المفاوز : الصحارى .

(٣) « البداية والنهاية » و « والكامل لابن الأثير » .

(٤) عاصمة الدولة الساسانية ، وتسمّى أيضاً طَيْسَفون .

ثم اقتحمَ بفرسهِ دجلةَ ، واقتحمَ الناسُ ، لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ . فساروا فيها ، كأنما يسيرون على وجه الأرض ؛ حتى ملؤوا ما بين الجانبين ، فلا يُرى وجهُ الماءِ من الفرسان ، وجعل الناس يتحدَّثون على وجه الماء ، كما يتحدَّثون على وجه الأرض ، فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء ؛ قالوا : (ديوانه ! ديوانه !) يعنون : مجانين ! مجانين !

ثم قالوا : والله ما تقاتلون إنساً ، بل تقاتلون جناً ! »(١) .

ومن هذه المغامرات العظيمة ما فعله **طارق بن زياد**فاتح الأندلس . قال المؤرخون : لما نزل طارق الجزيرة الخضراء ؛ أمر بالسفن ، فأُحرقت ، فجاءه رجالٌ من الجيشِ ، ولاموه على ما فعله ، وقالوا له : لقد قطعتَ بنا الحبال ، فكيف نرجعُ إلى بلادنا ؟ ! إنَّ عملك لا يقرُّه العقلُ ، ولا يتفقُ مع الحكمة !

قالوا : فضحك طارق ، ووضعَ يده على السيف ، وقال : إنَّما يحافظ على السفن ، ووسائل النقل ، والسلامة من يفكِّرُ في الرجوع ، أمَّا أنا ؛ فقد عزمتُ على البقاء في هذا البلد ، والقتالِ إلى أن يكونَ لنا وطناً ، أو يكونَ لنا مدفناً!

وكانت مغامرتهُ هذه من أكبر أسبابِ الظفر ، فقد استطاعَ بعدَ إحراق السفنِ أن يقول : « أيها الناس ! أينَ المفر ؟ ! البحرُ من

---

(١) البداية والنهاية : ٧/ ٦٤ بتصرف . وكانت تلك المغامرة في صفر سنة ١٦هـ .

ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق ، والصبر ! » . فأثار ذلك فيهم روحَ الجهاد ، والاستماتة ، وكان النصرُ .

وعلى أساس هذه المغامرة ـ التي نظر إليها العقلُ شزراً ـ قامت دولةُ العقل ، والعلم ، وقامت تلك المدنية الزاهرة ؛ التي كانت مفخرةَ العربِ ، ومدرسةَ الغربِ .

هذا ؛ ومغامرة **عبد الرحمن الداخل صقرِ قريش** في الدخول في الأندلس ، ومغامرات **الرشيد** في الصائفات ، وسفره الشهير من بغداد إلى هرقلة في أشدِّ أيام البردِ ، وتأديبه « نقفور » . وغزوات **المعتصم** في بلاد الروم معروفةٌ في التاريخ ، و« ما يومُ حليمةَ بِسِرٍّ »[1] .

هذه هي روح المغامرة ؛ التي امتاز بها العربُ في عهدهم الأول عن الأمم التي فقدتها ، وقعد بها الإسرافُ في التفكيرِ ، والحذرُ من المخاوف ، فجبنت ، وذلت ، وفقدت ملكها ، وشرفَها ، واكتسحتها الفتوحُ العربية ، وعصفت بها ، فأصبحت أثراً بعد عينٍ .

وعاد العرب في العهد الأخير ، فتسلَّطَ عليهم العقل المثبِّط ، والعلم المعوِّق ، وأحجموا عن الإقدام ، والاقتحامِ ، وبالعكس تعلّمَ

---

(١) هو يوم من أشهر أيام العرب في الجاهلية ، وهذا المثل يضرب في كل أمر مُتَعَالَم مشهور .

غيرُهم كيف يخاطرون بحياتهم ، وكيف ينتهزون الفرصَ . وتاريخ الحروب الأخيرة في أوروبة ، وتاريخ الاحتلال الأوروبي في الشرق في القرن التاسع عشر حافِلٌ بالمغامرات ، والخطوات الجريئة ، والإقدامات السريعة .

ولا يغير هذه الأوضاع القائمة في الشرق العربي إلا أن يربي العربُ فيهم ـ مع الحكمة التي لا بدَّ منها ـ روحَ المغامرة الأولى ، وسرعةَ التنفيذ ، وجرأةَ الإقدام ، ويعملوا بقول شاعرهم(١) ؛ الذي يقول :

إذا هَمَّ ألقى بينَ عينيه عَزْمَهُ ونكَّب عن ذكرِ العواقبِ جانبا

إنَّ قضيةَ فلسطين سهلةٌ هينة ، وانتصارُ العرب مضمونٌ ؛ إذا كانوا أحراراً في تصرفهم ، مالكين لزمامهم ، مدبِّرين لسياستهم ، مغامرين بأرواحهم ، وجنودهم ، محكِّمين لسيوفهم ، وأسنتهم ، واثقين بنصر الله ، معتمدين على سواعدهم فقط ، متمردين على المادة ، والشهوات ، مصممين على الكفاح ، والجهاد .

* * *

وبقيت النقطةُ الأخيرةُ وهي النقطة الحساسة في قضايانا الملتوية ، ومشاكلنا المعقَّدة ، وهي :

---

(١) هو سعيد بن ناشب . والبيت من قصيدة ذكرها في الحماسة : ١/ ٧٠ ، والشعر والشعراء ص٦٩٧ ؛ والعقد الفريد : ٢/ ٤٢٩ .

فقدانُ الشخصية التي تملك القضيةُ عليها مشاعرها ، وتفكيرها ، وتصبح همَّها الشاغل ، وتستولي عليها استيلاءً كاملًا :

لقد تتبعت ـ أيها السادة ـ التاريخَ ، واستعرضتُ المواقفَ الحاسمة ، والساعاتِ العصيبة في تاريخ هذه الأمة ، وفي التاريخ العام ، فرأيتُ على رأس كلِّ قضية منها ، وفي كلِّ أزمةٍ ، ومحنةٍ تتهدد كيان هذه الأمة ، وتتحدى شرفها وكرامتها رجلًا من العِصاميِّين ، يستولي على قلبه الحزنُ ، والاهتمامُ بهذه الحالة ، فَيَذْهَلُ عن نفسِه وأهله ، ويهجرُ راحته ، ولذَّته ، وتتلخَّص الحياة عنده في حلِّ هذه الأزمة ، وفضِّ هذه المشكلة ؛ فلا يقرُّ له قرار ، ولا يهدأُ له بال ؛ حتى تنجلي هذه الغمرة ، ويرى نفسه مكلَّفاً بذلك ، خُلِقَ له ، وأُمر به ، ولا يرى لنفسه عذراً في الاعتزال ، والانصراف إلى النفس ، والعيال .

وإليكم بعض الأمثلة من تاريخنا :

لقد علمتم ما أصاب المسلمين إثر وفاة رسول الله ﷺ من المحن ، فقد أُصيبوا بما لم تُصَبْ به أمةٌ ، أو جماعةٌ في فجر حياتها ، وأشرفت الدعوةُ الإسلاميةُ على الضياع ، وحسبكم قول عروة بن الزبير : « إنَّ المسلمين كانوا كالغنم المَطِيرة في الليلة الشاتية ؛ لفقد نبيّهم ﷺ وقلّتهم ، وكثرة عدوِّهم » .

ولكنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد قيّض لهذه المحنة **أبا بكر الصديق** ،

رضي الله عنه ، فقام قيام الأنبياء ـ وليس بنبيٍّ ـ وركَّز فكره ، وهمَّه على حراسة هذا التراث العظيم ، وردَّ الأمر إلى نصابه ، وأفرغَ روحَه في ذلك ، وملكته هذه الفكرة حتى نسيَ نفسَه ، وكلَّ ما عدا ذلك ، وكان رجلاً غير الرجل الذي عرفوه .

لقد عُرف بالرفق الزائد ، وآثر جانبَ اللين دائماً على جانب الشدة ، والعنف ، فتصلَّب ، وخشن في هذه المرَّة ؛ حتى فاقَ في ذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المعروف بالشدة ، والصلابة ؛ لأنَّ الموقفَ يتطلَّب ذلك .

رأى أبو بكر : أنَّه القائمُ على هذه الأمانة العظيمة ، والمسؤول عنها ، ففاضت على شفته تلك الكلمة البليغة المأثورة ؛ التي تمثل نفسيته ، وشعوره خير تمثيل : « أينتقصُ الدينُ ؛ وأنا حيٌّ ؟ ! » .

وبهذه الغَيْرة الملتهبة ، والقلب المتألم ، والنفس الأبية استطاع أبو بكر أن يحفظَ الدِّينَ ، ويورثه الأجيالَ القادمةَ كاملاً غيرَ منقوص .

قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ : « لمَّا قُبِضَ رسولُ الله ﷺ ارتدت العربُ قاطبةً[1] واشرأبَّ النفاقُ ، والله لقد نزل بأبي ما لو نزلَ بالجبالِ الراسياتِ ؛ لهاضها[2] ! وصار أصحابُ محمد ﷺ كأنَّهم مِعْزىً مَطِيرة

(١) أي : في كل قبيلة إما عامة وإما خاصة ، كما قال عروة ابن الزبير .
(٢) أي : كسرها ، والهَيض : الكسر بعد الجبر . وهو أشدُّ ما يكونُ من الكسر .

في حُشٍّ[1] في ليلة مطيرة بأرض مسبعة[2] ، فوالله ما اختلفوا في نقطةٍ إلا طار أبي بخطمها[3] ، وعَنانها[4] ، وفصلها » .

لذلك يقول أبو هريرة بحقٍّ : « والله الذي لا إله إلا هو ، لولا أنَّ أبا بكر استخلفَ ؛ ما عبد الله ! ! قالها ثلاثاً » .

* * *

وأضرب لكم مثلاً ثانياً من أوساط الناس نعرفهم كملوك ، ورجال دنيا :

تدفَّقت الجيوشُ الصليبية من أوروبة ، واكتسحت فلسطينَ بما فيها من إمارات ، ومقدسات ، وكانت كالجراد المنتشر ، ولم يقف في طريقها ملك ، ولا جيش ، وعجزتِ الحكومات الإسلامية عن مقاومتها ، فاستولت على البلاد ، والعباد ، وهددت هذه الأمةَ العظيمةَ ، وحضارتها .

وكان الخَطْبُ جسيماً ، ووقفَ العالم الإسلامي على مفترق الطرق ، فلو جرتِ الأمورُ في مجاريها ؛ لكان فريسةَ الاحتلال ، والاستعمار في القرن السادس ، كما كان في القرن التاسع عشر . وكان

(١) حش : بستان ، ومجتمع نخل .
(٢) أرض مسبعة : أرض تكثر فيها السباع .
(٣) الخطم : مقدمة أنف الناقة ، وفمها .
(٤) العنان : سير اللجام ؛ الذي تمسك به الدابة .

الأمرُ أعظمَ من أن يقومَ له ملوكٌ ، وقوادٌ يكونُ الدفاعُ عن القدسِ ، واستقلالُ العالم الإسلامي بعضَ همومهم ، أو من هوامش حياتهم . إنَّما كانَ ينبغي له رجل يكونُ الأمرُ كلَّ همه ، كان ذلك الرجلُ هو : السلطان **صلاح الدين الأيوبي** ، الذي اختاره الله لهذه المهمة ، وهيأ هو نفسه لها ، فقد حكى عنه صاحبُه (القاضي بهاء الدين المعروف بابن شدَّاد) المتوفى سنة ٦٣٢هـ :

« إنَّه تابَ عن المحرَّمات ، وترك الملذَّات ، ورأى : أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ خلقه لأمرٍ عظيم لا يتفق معه اللهو ، والترف » .

قام صلاحُ الدين للدفاع عن فلسطين ، وردِّ الغارة الصليبية ، وركَّز فكره عليه ، وتفرَّغ له ، واستولت عليه هذه الفكرةُ استيلاءً تاماً ، حتى لم تدع لغيرها موضعاً .

وإليكم ما قاله ابن شداد في سيرته : « ولقد كان حبُّه للجهادِ ، والشغفُ به قد استولى على قلبه ، وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ؛ بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ، ويحثُّ عليه .

ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهلَه ، وأولادَه ، ووطنَه ، وسكنَه ، وسائر ملاذه ، وقنعَ من الدنيا بالسكون في ظل خيمته ، تهبُّ فيها الرياح ميمنةً ، وميسرة . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه ـ

أي : إلى السلطان ـ يحثه على الجهاد »[١] .

وقد حمل السلطان همَّ القدس ، فأخذ منه كلَّ مأخذ ، وحل في قرارة نفسه . قال ابن شداد :

« وكان ـ رحمه الله ـ عنده من القدس أمرٌ عظيمٌ ، لا تحمله الجبال »[٢] .

ومهما حاولتُ ـ أيها السادة ـ أن أصفَ هذا الهمَّ الذي استولى على صلاح الدين ، وأصوِّرَ ما كان فيه من قلقٍ وانزعاجٍ دائم ، وشدة اهتمام باسترداد البلاد ، وتحرير القدس ، وردِّ الأوروبيين على أعقابهم ؛ لا أستطيع أن أزيدَ على وصف ابن شداد له بالوالدة الثكلى ، ولا أستطيع أن آتي بتعبيرٍ أبلغ ، وأدق من هذا ! يقول ـ رحمه الله ـ في وقعة عكا :

« وهو ـ السلطان ـ كالوالدة الثكلى ، يجولُ على فرسه من طلبٍ إلى طلبٍ ، ويحثُّ الناسَ على الجهاد ، ويطوفُ بين الأطلابِ بنفسِه ، وينادي : يا للإسلام ! وعيناه تذرفان الدموع ، وكلَّما نظر إلى عكا ، وما حلَّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم ؛ اشتدَّ في الزحفِ ، والحثِّ على القتال ، ولم يَطْعَمْ في ذلك اليوم طعاماً البتة ، وإنَّما شربَ أقداحَ مشروبٍ كان يشيرُ بها الطبيب »[٣] .

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢١٣ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص١٥٥ .

ويقول في فتح الطريق إلى عكا :

« والسلطانُ يوالي هذه الأمور بنفسِه ، ويكافحها بذاته ، لا يتخلَّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شِدّةِ حرصه ، ووفور همته ، كالوالدة الثكلى .

ولقد أخبرني بعض أطبائه : أنه بقي من يوم الجمعة إلى الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً ؛ لفرط اهتمامه »(١) .

وقال في ذكر الواقعة العادلية :

« لقد رأيتُه ـ رحمه الله ـ قد ركب من خيمته ؛ وحوله نفرٌ يسيرٌ من خواصه ، والناسُ لم يتمَّ ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها »(٢) .

بهذا الهمِّ الشاغل ، والنفس القلقة ، والقلب المنزعج استطاعَ صلاح الدين أن يكمل مهمته ، ويكتسب الفتحَ المبينَ في معركة « حطين » . وما كان اجتماعُ الجيوش عنده ، والتفاف الأمراءِ إلا صدىً لقلبه الخفَّاق ، وإيمانه الفيَّاض ، وصدره الجيَّاش ، وروحه الملتهبة . لا ترون انتصاراً باهراً في التاريخ ، ومعركةً حاسمة إلا ومن ورائها قلب يخفق ، وعرق ينبض ، وليث يثور ، وشجاع يغضب .

---

(١) المرجع السابق ، ص٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص١١٢ .

إنَّ موضع الضعف في جهادنا : أننا لا نجدُ في الشعوب العربية ، والحكومات ، والأفراد من يتبنى هذه القضية ، ويتجرَّدَ لها تجرَّد رجلٍ مرضَ وحيدُه ، أو قامت عليه قضية ، فإذا تهاون في الدفاع ؛ عوقب عقاباً شديداً ، وعلامة ذلك ـ أيها السادة ـ وجود هذه الحزازات ، والنزاعات ، والمنافسات بين الحكومات ، والأحزاب ، والأفراد ؛ ومعركة فلسطين قائمة ، والعدو بالمرصاد .

فهل سمعتم بأسرةٍ يمرضُ عزيزُها ، أو عميدُها ، ويشتدُّ به المرض ، ويتعرَّضُ للموت ؛ ورجال هذه الأسرة من أخوة ، وأعمام ، وأخوال يتنازعون في العمادة ، أو السيادة ، ويتشاغلون بذلك عن علاجه ، وتمريضه ؟ ! إنْ دلت هذه الظاهرة على شيء ؛ فإنها تدلُّ على عدم تعلق قلوبهم بالمريض ، أو موت الإنسانية فيهم .

إنَّ مسؤولية فلسطين قد قسمت على شعوب كثيرة ؛ ولكن لا يرى شعب أنه أولى بهذه القضية من غيره ، مع أنها قضية الجميع ، وكل بلد عربي في خطر ؛ إذا قصَّر فيها ، أو تهاون . ثم إنَّ الديموقراطية قسمت المسؤولية على الشَّعب كله ، ولكن لم يضطلع بها أحد ، فهي ضائعة بين أفراد الشعب ، والرؤساء ، لا يرى أحد نفسه مسؤولًا عنها ، ولا يراها قضيته الشخصية .

ولكن مهما كان ؛ فلا داعي إلى اليأس ، ولا مجال للتشاؤم ؛ فالمنبع الذي تنبُع منه الدوافع النفسية ، والبواعث الداخلية ـ وهو

الإيمان ـ لم ينضب في صدر الأمة ، ويمكن إثارته في كلِّ وقت ، وإنَّ العاطفة التي تبعث على المغامرات لا تزال قويةً تنتظر الانطلاقَ ، وإنَّ الأمةَ لم تُصَبْ بالعُقْم ، وقد أنجبت في كلِّ محنةٍ ، وأزمةٍ أفراداً واجهوا المشكلة ، وجاؤوا بالعجب العجاب ، وعسى أن تكونَ فلسطينُ سببَ بعثٍ جديدٍ لهذه الأمة ، ويقظةٍ عامةٍ للشرق العربي .

وأنا أختم حديثي هذا ـ أيها السادة ـ بترجمة أبيات لشاعرنا العظيم الدكتور محمد إقبال ؛ الذي يقول :

« إذا رأيتَ النجومَ شاحبةً متكدِّرةً تخفقُ ، فاعلم : أنَّ الفجرَ قريبٌ .

ها هي ذي الشمسُ قد ذرَّ قرنُها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدبارِه .

إنَّ عاصفةَ الغربِ قد أعادتِ المسلمَ إلى الإسلام .

فإنَّما تكون اللآلىءُ في البحرِ المتلاطم الهائجِ .

لقد دبَّ دبيبُ الحياةِ في الشرقِ ، وجرى الدمُ الفائِرُ في عروقهِ الميتة ، وذلك سِرٌّ لا يفهمُه ابن سينا ، والفارابي .

إنَّ إقبالَ ليس يائساً من تربتِه الحقيرة ؛ فإنَّها إذا سُقِيَتْ أتتْ بمحصولٍ كبيرٍ » .

* * *

المحاضرة الثالثة

كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية

أصبح المسلمون في (٢٩ من صفر ١٣٨٧ من الهجرة ٩ من حزيران ١٩٦٧م)[١] في كلِّ بقعة من بقاع الأرض ؛ التي يسكنونها ، لا يرفعون رؤوسهم حياءً ، ولا يواجهون مواطنيهم ، وجيرانهم في الشوارع ، والطرقات ، والمحافل ذلةً ، ومهانة ، قد خنقتهم العَبَرات ، فهم يغالبونها ، فقد جثم اليهود على مراكز هامة استراتيجية من بلادهم العربية المقدسة ، واستولت على مدن في أرضهم .

وأدهى من كلِّ ذلك وأمرُّ ، أنَّ اليهودَ قد استولوا على القبلة الأولى ، وثالث الحرمين الشريفين ، المسجد الأقصى المبارك ، الذي كان منه الإسراء ، وكان ذلك لأول مرة منذ ألفي سنة باعتراف رُبِّيِّهِم الأكبر ، وكان أولَ يومٍ لم يُصَلِّ فيه المسلمون الجمعة في المسجد الأقصى منذ ثمانية قرون ، بعد ما استعاده صلاح الدين الأيوبي من

---

(١) كتب المؤلف هذه الكلمة الرائعة العميقة الحزينة عقب هزيمة العرب في حرب حزيران من عام ١٩٦٧م .

الصليبيين ـ وقد بقي في حكمهم تسعين سنة فقط ، لم يهنأ للمسلمين عيشٌ في هذه المدة ، ولم يطبْ لهم طعامٌ ، وشرابٌ ، حتى استردُّوه إلى الولاية الإسلامية العادلة ، ووصايتها الرحيمة السمحة ـ فكانت هذه الجمعة (٢٩ من صفر ١٣٨٧هـ) ـ والجمعة مباركة في التقويم الإسلامي ـ يوماً مشؤوماً ، لم يعرف المسلمون في أنحاء العالم يوماً أشأم منه منذ قرون ، ففي كل عينٍ دمعةٌ ، وفي كلِّ صوتٍ حزنٌ ، وشجىً ، وفي كلِّ بيتٍ حدادٌ ، ومأتمٌ ، وفي كلِّ مجلسٍ عزاءٌ ، ورثاءٌ .

هذا ؛ وقد كانت النفوس الجريحة يساورها أملٌ في بقاء الصراع ، والكفاح ، وطول الحرب ، فقد تنبَّأَ الخبراء الأجانب ، وأهل البصر بالموقع الجغرافي : أنَّ الحربَ إذا طالت أياماً ، وثبت العرب في المعركة ، فإنها ستنهك قوى اليهود ، وتلجأ إلى أن تضع السلاح .

وكانت الدول العربية القريبة ، والبعيدة تضمُّ قواتها إلى الحكومات ؛ التي كانت قد حَمَلَتْ مسؤوليةَ الحربِ ، والأمل تَعِلَّةُ[1] كل جريح ومريض ، فكان بصيصاً من نور ، وبريقاً من حياة يجسِّمه التفاؤلُ .

وقد انقطع هذا الخيطُ الضعيفُ ، وخمد هذا المصباحُ الضئيلُ ، فقد قبلت الجمهورية العربية المتحدة[2] ـ زعيمةُ المعركة ، وممثلة

---

(١) تعلَّة : تسلية .

(٢) اسم جمهورية مصر العربية آنذاك .

العرب ـ وقف إطلاق النار من غير شرطٍ ، ووقَّعت الهدنةَ ، ووقع ذلك في سرعةٍ أسطوريةٍ ، وبراعة تمثيلية ، ووقف العالم الإسلامي ذاهلاً مشدوهاً ، مكتوفَ اليدينِ ، مسلوب الإرادة ، فإنَّ أصحابَ القضية الذين كانوا في المعركة ، والذين حَمَلوا رايتها ، وتولَّوا كِبْرها قد قبلوا الصلح .

وأصبحَ المسلمون من غدٍ لهم وجوه غير وجوههم بالأمس ، وأصبح مواطنوهم الشامتون ، وزملاؤهم في المكاتب ، والمصانع يتندَّرون بهم ، وبالحكومات العربية ، وبإخوانهم في الدِّين .

فمنهم من يقول : « لقد اسْتَسْمَنَّا ذا وَرَم » .

ومنهم من يقول : « كنا نسمع من سنين جعجعةً ، ولم نَرَ طحناً » .

ومنهم العاميُّ اللاذع الذي يقول : « تمخَّض الجبل[1] فولد فأراً » .

والمسلمون يسمعون كلَّ هذا في خجلٍ ، وحياءٍ ، والعهدُ بهم : أنَّهم يقرعون الحجة بالحجة ، ويقابلون الريح بالإعصار ، وهم

(١) الجبل : الجمل على لغة من يقلب الميم باء كقولهم في مكة بكة . انظر (وحي الرسالة) للزيات : ١/ ١٩٠ .

أصحاب بديهة ، وعارِضة[١] ، ولكن يخونهم الذكاء ، وذَلاقة اللسان في هذا الموقف ، ففيه ضعف ، وعجز ، فينشد الواحد منهم بلسان الشاعر العربي القديم عمرو بن معدي كرب :

فَلَوْ أنَّ قومي أنطقَتْني رماحُهُمْ نطقتُ ولكنَّ الرماحَ أجرَّتِ[٢]

ولم تكن القضيةُ قضيةً شخصيةً ، يسقط فيها قائدٌ ، ويخفق فيها زعيمٌ ، فما أهون هذه القضية ، وما أكثر أمثالها في تاريخ الأمم ، والحكومات ، وفي تاريخ الأمة الإسلامية نفسها ! ولكن اقترنت بهذه القضية قضيةُ الحكومات العربية ، وتلوّث بهذا الإخفاق الذريع اسمُ العرب ، الذي كان يملأ القلوبَ مهابة ، ورعباً في ديار العجم ، والذي ارتبط به تاريخٌ مجيدٌ مشرِقٌ من أروع التواريخ الإنسانية .

كان المسلمون في جميع أنحاء العالم يستمدون منه الإيمان ، والحماس ، **ويعتمد** عليه المصلحون ، والمجدِّدون ، والخطباء ، والمؤلفون ، والأدباء ، والمنشئون في كل جيل ، وعصر في إثارة الشعور ، وإيقاد جَمَرات القلوب أكبر **اعتماد** .

فقد أساءت هذه النهاية المخزية إلى كرامة هذا التاريخ ، وإلى منبع هذا الحماس إساءةً كبيرةً ، وخلقت مشكلة طريفة[٣] لهؤلاء الدعاة

---

(١) العارضة : البيان ، واللَّسَن .
(٢) أجرّت : أوجرت . قال في القاموس : أوجر الرمحَ : طعنه به في فيه .
(٣) طريفة : جديدة .

والعاملين ، سينتظرون أياماً طويلة لاندمال هذا الجرح ، وزوال هذا الانطباع .

ويحار العقل في تعليل هذه الهزيمة المنكرة ، وأسبابها ؛ إذا استعرض الموقع الجغرافي ، وقارن بين ما يملكه العرب من وسائل وقوات ، ورأى التفاوت العظيم المدهش في عدد النفوس ، ووصول الأمداد ، والنجدة .

فإذا فكر في ذلك ؛ رجع الفكر خائباً ؛ وهو حسير ، ولم يرَ لذلك مثيلًا في تاريخ الأمة الإسلامية ، إلا حين هجم التتر ـ وهم الجراد المنتشر ، والسيل المنهمر ـ على الدولة الإسلامية الكبرى ، وقذفَ الله الرعبَ في قلوب المسلمين ، وسلَّط هؤلاء الوحوش عليهم ، يحصدونهم حصداً كالحقول ، ويسوقونهم سوقاً كالقطعان من الغنم .

ولا يمكن تعليلُ كلِّ ذلك مهما دققنا في النقد ، والتحليل ؛ إلا بكلمة واحدة جامعة قرآنية معجزة ، هي : (الخذلان) وهو قوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

ولماذا كان هذا الخذلانُ بعد ما واكبهم النصرُ ، والتأييد الإلهي ، ومشى في ركابهم الفتحُ في رحلتهم الطويلة ، وظهرت المعجزات ، ونزلت جنودُ السماء ، حتى اعتقد المسلمون ـ وفي مقدمتهم وعلى رأسهم العرب ـ : أنَّ النصرَ حليفُهم في كلِّ معركةٍ .

وقضية فلسطين والمسجد الأقصى، هي قضية حق، وعدل، وعقل، ومنطق ، تستحقُّ كلَّ نصرٍ ، وتأييدٍ من الأرض ، والسماء ، ودولة إسرائيل المزعومة قامت على الظلم، والجريمة، والاغتصاب ، والمكابرة ، واليهود هم أذل خلق الله ، وأكثرهم جبنا ، وخنوعاً ، وسكان هذه الدولة الوليدة خليطٌ من البشر ، شذاذٌ أفَّاقون[1] ، أحاطت بهم الدول العربية إحاطة السوار بالمعصم ، والقِلادة بالجيد ، فهي جزيرة صغيرة في بحر واسع هائج ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٦١]؟!

وإليك الحقيقة المؤلمة الثقيلة .

لقد كان العربُ الأمةَ المختارةَ لحمل الرسالة الإسلامية الأولى ، ونشرها في الآفاق ، وحراستها ، والحَدبِ عليها إلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، وقد ربط الله مصيرهم بمصير الإسلام ، وببعثة محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وقرن بينهما قِراناً لا يقطعه شيء ، وقد أشعل قلوبَهم حماساً في سبيل نشر تعاليم الإسلام ، ودعوة الأمم إليها ، وإنقاذها من براثن الجاهلية .

وقد كانت لأخلاقهم ، ومواهبهم ؛ التي خُصُّوا بها من بين الأمم ، والتي غذَّاها ، ونمَّاها الإسلام ، ووجَّهها التوجيه الصحيح فضلٌ كبير في انتصارهم على عدوهم الذي كان يفوقهم عشرات المرات ، وفي

(١) أفَّاقون : منفردون يضربون في الآفاق مشردين .

تحطيمهم للإمبراطوريتين العظيمتين الرومية ، والفارسية .

منها : الإيمان الراسخ ، والوفاء للإسلام ، والاستماتة في سبيله .

ومنها : الإيثار ، والانسلاخ عن الأنانية الفردية .

ومنها : العفة ، والزهد ، والتقشف في الحياة ، والصبر ، وقوة الاحتمال .

ومنها : الاعتماد على العمل ، والكفاح أكثر من الحديث ، والكلام ، والواقعية بدل الاسترسال في الأوهام ، والأحلام .

وقد جدَّ في العالم العربي في الدور الأخير حوادث ، وتطورات قوَّضت دعائم هذه الحياة ، وأركان هذا الخلق العربي الإسلامي ، وخلقت من هذا العالم ؛ الذي عجنت طينته بالإسلام ، وحبه والوفاء له ، والتفاني في سبيله عالماً جديداً ، يختلف عن العالم القديم اختلافاً جذرياً .

وأهم هذه العوامل التي غيَّرت اتجاهه ثلاثة عوامل بحسب الترتيب التاريخي :

العامل الأول : الحضارة الغربية ، والثروة الهائلة التي تدفقت عليه :

وقد أثرت هذه الحضارة ، وهذه الثروة في أخلاق هذه الأمة العسكرية بالطبيعة ، والتاريخ ، والمتقشِّفة الزاهدة بحكم الرسالة ،

والوراثة تأثيراً عميقاً ، قلبها رأساً على عقب .

ففشتْ فيها روحُ التنعم ، والرقة ، والترف ، والإخلاد إلى الراحة ، وفقدت روحَ الفروسية ، والفتوَّة العربية ، والنخوةَ ، والصبرَ على المكاره ، واحتمالَ المصائب ، والثباتَ في معركة الحياة ، واستهانَ الناسُ بأحكام الله ، وفرائضه ، وتجرَّؤوا على المحارم ، ووقعوا في حِمَى الله[1] .

وأخلَّ العلماءُ بواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر[2] ، وتركوا الحِسبةَ على الناس[3] ، وكلمةَ حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ .

وانتشرت المجلاتُ ، والصحفُ الماجنةُ الخليعةُ تنشر المجونَ ، والخلاعةَ ، وتبذرُ بذورَ الفسادِ ، والإلحاد ، وتحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .

واكتسحت المجتمعَ موجةٌ من التمتع باللّذات ، وانتهاب

---

(١) حمى الله : ما حرمه الله سبحانه ، جاء في الحديث : « ألا إنَّ حِمَى اللهِ محارمُه » .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٨ ـ ٧٩] .

(٣) الحسبة على الناس : الإنكار عليهم .

المسرَّات ، وترفيه النفس ، وتسليتها على حساب الأخلاق ، والضمائر ، وعلى حساب الشرائع ، والدِّيانات .

حتى أصبح بعضُ من يعرف قانون المجازاة الإلـٰهي ، ويعرفُ تاريخَ الأمم السابقة البائدة يرفعُ بصرَه إلى السماء خشية أن تنزل عقوبة ، أو يحل بلاء[1] ، ويتلو قوله تعالىٰ : ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٩٧ـ٩٩] .

العامل الثاني : هو ظهور القومية العربية التي كان لها أعمقُ تأثيرٍ في حياة الأمة العربية ، وعواطفها ، ومشاعرها بعد الحرب العالمية الأولى .

فقد قويت هذه العصبيةُ على حساب العصبية الإسلامية ، وأصبحت ديانةً ، وعقيدةً يتغنَّى بها القوميون ، ويتحمَّسون لها ، كما يتحمَّس أهلُ الدِّياناتِ والمللِ لدياناتهم ، وشرائعهم ، ويرون فيها عوضاً ، وخلفاً عن الدِّين الإسلامي ؛ الذي أكرمهم الله بالإيمان به ، والانتصار له ، والتفاني في سبيله .

يتمثَّل ذلك بعضَ التمثيل في عبارات التقطناها على عجل من كتابات بعض كبار كُتَّاب القوميين العرب ، وهي تقدِّمُ أسلوبَ الفكر

---

(١) حدَّثني بعض علماء مصر ، وأهل الغيرة بذلك عن أنفسهم .

الحديث المسيطر على دعاة القومية العربية :

« العروبةُ نفسُها دينٌ عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ، ومسيحيين ؛ لأنها وجدت قبل الإسلام ، وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا ، مع دعوتها ـ أي : العروبة ـ إلى أسمى ما في الأديان السماويةِ من أخلاق ، ومعاملات ، وفضائل ، وحسنات »[١] .

« لئن كان لكلِّ عصرٍ نبوتُه المقدَّسة ، إنَّ القومية العربية لهي نبوةُ هذا العصر في مجتمعنا العربي » .

ورسالةُ هذه النبوة هي : تجميعُ القوة ، وتكتيلُ الجبهةِ ، والانطلاقُ بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة .

« وإنَّ كتاب العرب في أعناقهم أمانة ، هي أن يكونوا حواريِّين لتلك النبوة الصادقة ، يزكُّونها بأقلامهم ، وينفخون فيها من أرواحهم ، ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء ، والازدهار »[٢] .

(١) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب (قضية العرب) لعلي ناصر الدين ، هامش ص١٣٨ .

(٢) مقال الأستاذ محمود تيمور في مجلة (العالم العربي) ، عدد : ١٧١ بعنوان : « النثر والقومية العربية » .

« الوحدة العربية يجب أن تنزلَ من قلوبِ العربِ أينما كانوا منزلَ وحدة اللهِ من قلوب قوم مؤمنين »[١] .

« القضية العربية لن تكون أبداً عند العربي المؤمن الحر العاقل ، الشريف ، الصالح ، الخيِّر ، الأبيِّ ، المترفع إلا قضية إيمان ، إيمان بالوطن للوطن ، كقضية الإيمان بالله لله ليس غير »[٢] .

وقد نشأ بذلك عقوقٌ بنعمة الإسلام ، وكنودٌ ، وكفرانٌ بحق محمد ﷺ وفضله في تكوين هذا العالم العربي ، وإبرازِه من العدم إلى الوجود .

وبدرت من أفواه كثيرة من الشباب المتعلِّم ، وبعض قادة الفكر ، وحملة الأقلام كلماتٌ ، وكتاباتٌ يرتدُّ بها صاحبها عن الإسلام ، ولا يستحقُّ أن يُدْفَنَ في مقابر المسلمين .

وصدرت مقالاتٌ في صحفٍ ، ومجلاتٍ حكومية يبرُزُ فيها أصحابُها كعدوٍّ حقودٍ ثائر على الإسلام ، وجميع الأديان .

وبدأ بعضُ الكتَّاب يتحدَّثون عن الإنسان العربي الجديد كعملاق يتمرَّد على جميع الأديان السماوية ، والأسس العقائدية ، وجميع القيم الخلقية ، والروحية .

---

(١) مجلة العربي العدد الثاني ، ص٩ ، كانون ثاني (يناير) ١٩٥٩م .
(٢) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب (قضية العرب) ، ص١٩ .

وقد عبَّر عن هذه الفكرة كاتب جريء ، يمثِّلُ في مقالٍ له في مجلة عسكرية حكومية عدداً كبيراً من الضباط ، والقادة ، والمفكرين ؛ الذين يفكرون هذا التفكير .

يقول صاحب هذا المقال :

« استنجدت أمةُ العربِ بالإله . . فتَّشت عن القيم القديمة في الإسلام ، والمسيحية ، استعانت بالنظام الإقطاعي ، والرأسمالي ، وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كلُّ ذلك لم يجِد فتيلاً . . مع كلِّ هذا شمَّرت أمةُ العربِ عن ساعديها ، ونظرت بعيداً . . . بعيداً . . . لترى طفلها الوليد ، يقتربُ منها شيئاً ، فشيئاً . . وهذا الوليد ليس إلا الإنسانَ العربيَّ الاشتراكيَّ الجديد .

الإنسان المتمرِّد على جميع القيم المريضةِ الهزيلة في مجتمعه . . . التي هي ليست إلا وليدةَ الإقطاع ، والرأسمالِ ، والاستعمار . . . تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربيِّ إنساناً متخاذلاً متواكلاً ، إنساناً جبرياً ، مستسلماً للقدر ، إنساناً لا يعرفُ إلا أن يقولَ : لا حول ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم !

أما القيمُ الجديدةُ التي ستخلقُ الإنسانَ العربيَّ الجديد ، فهي قيمٌ نابعةٌ من صُلْبُ الإنسانِ المتمرِّدِ المعذَّب ، نابعةٌ من قلبِ الإنسانِ الجائع ، نابعةٌ من الإنسان الاشتراكيِّ الثوريِّ الجديد ، الذي لا يؤمنُ إلا بالإنسان ، وبالإنسان وحده .

والطريقُ الوحيدةُ لتشييد حضارةِ العربِ ، وبناءِ المجتمع العربيِّ ، هي خَلق الإنسانِ الاشتراكيِّ الجديد ، الذي يؤمنُ : أنَّ الله ، والأديانَ ، والإقطاعَ ، والرأسمالَ ، والاستعمارَ ، والمتخمين ، وكلَّ القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دُمًى محنطة في متاحف التاريخ .

ونحن إذ نشترطُ في إنساننا الجديد رفضَه للقيم السابقة ؛ علينا أن نضعَ قيماً جديدة محدودة ، ليست هناك سوى قيمة واحدة ، وهي الإيمان المطلق بالإنسان القدريِّ الجديد ؛ الإنسان الذي لا يعتمِدُ إلا على نفسِه ، وعمله ، وما يقدمه للبشرية جمعاء ، لأنَّه يعلم نهايته الحتمية « الموت » وليس غير الموت ، لن يكون هناك نعيمٌ ، أو جحيمٌ ، بل سيصبحُ ذرةً تدور مع دوران الأرض ، لذلك هو مضطر إلى أن يقدِّمَ كلَّ ما يملك لأمته ، والإنسانية دونما مقابل كزاوية صغيرة في الجنة مثلًا »[١] .

وقد خامرت جميعَ الشعوب العربية نشوةُ هذه القومية في قليلٍ ، أو كثيرٍ ، وجنَّد لها زعماؤها ، وقادةُ الأدب ، والفكرِ ، والسياسةِ جميعَ مواهبهم ، وقواهم ، وجميع وسائل الحكومة ، وكلُّ ذلك يثيرُ سخط الله ، وغضبه ، ويقطعُ عن أصحابها نصرتَه ، وتأييدَه ، وقد زخر

---

(١) من مقال للمرشح (رتبة عسكرية) إبراهيم خلاص في مجلة : (جيش الشعب) السورية ، نشر في ٢٥/٤/١٩٦٧م .

القرآن بالوعيد والوبال على من يجحد النعمة ، ويكفر بها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ولا نعمةَ أعظمُ من نعمة الإسلام ، ولا ثروةَ أعزُّ من ثروة الإيمان ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

العامل الثالث : هو قيام الحكومات العسكرية الدكتاتورية في كلِّ قطرٍ عربيٍّ تقريباً ، وظهورُ ثورةٍ عسكريةٍ على إثر ثورةٍ عسكريةٍ في هذه البلاد .

وقد أفقدت هذه الثورةُ المشؤومةُ المتلاحقة المتواليةُ البلادَ أفضل قادتها العسكريين ، وزعمائها السياسيين ، وأكثرهم حنكة ، وتجربة ، واكتواء بالسياسة ، ومراساً بالحرب ، فكان عددٌ كبيرٌ من هؤلاء القادة ، وأركان الحرب ، والضباط المحنكين ، والزعماء الناضجين ضحيةَ هذه الثورات ، وهذه الحكومات الدكتاتورية ، فأُعدمَ كثيرٌ منهم ، وأُجلي الباقون ، وغادروا البلاد فراراً بدينهم ، أو شرفهم ، أو حياتهم .

وهكذا أصيبت هذه البلاد بفقرِ الرجالِ ، وأزمة القادة ، ولم تبقَ

فيها إلا عصاباتٌ معدودةٌ محدودةٌ لحزبٍ واحدٍ ، ولوجهة نظر خاصة .

وكانت أكبرُ مهمةِ هذه الحكومات الدكتاتورية المقلِّدةِ للحكومات الشيوعية المتطرِّفة القضاءَ على كلِّ عرقٍ ينبض ، وعين تطرف . فتعقبتها تعقب محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، وفرعون مصر لأطفال بني إسرائيل في زمن قبل التاريخ ، فأصبحت البلادُ كلها شبه معسكر ، لا يوجَدُ فيه إلا زيٌّ واحدٌ ، ونظام واحد ، أو كسجن لا حريةَ فيه ، ولا تنوُّعَ ، وأصبحت الصحافة ، والإذاعة آلةً لترديدِ الصوت الرسمي ، وتضخيمه .

وتُعقِّبتِ الجماعات الدينية بصفة خاصة ، ولقيت القسطَ الأكبر من الاضطهاد ، والتعذيب ، والمطاردة ، والهوان ؛ حتى عدمت البلاد بطولها وعرضها قائلًا يقول : « أصبتَ » أو : « أخطأتَ » أو : « أحسنتَ » أو : « أسأتَ » ، وأصبح الصوتُ الوحيدُ ؛ الذي يسمع : « أصبتَ وأحسنتَ » .

وعدمت البلاد بطولها وعرضها قائلًا يقول لضابط صغير من الضباط ، ولحاكم عادي من الحكام ، بل لصحافي ، ومذيع ، أو كاتب أو أديب : « اتَّقِ الله في أمَّتك وبلادك ! » .

وعُنيت هذه الحكومات بتجفيف منابعِ الإيمانِ ، والحماسةِ الإسلامية أكثر مما عنيت بسد أبواب الفساد ، والإلحاد ومعاقبة الخونة ، والمجرمين ، والدعَّارين الحشاشين .

وكانت هذه الحكومات التي تزعم الديمقراطية ، أو الاشتراكية أفظع صور الحكومات الشخصية الجائرة المستبدِّة في الزمن القديم .

وكان أكثر شغفِ هذه الحكومات الشخصية الدكتاتورية بالثرثرة الفارغة ، والخطب الرنانة ، والوعود الخلابة ، والتهديدات المجلجلة ، وكان اعتمادها على كثرة الكلام ، والدعاية ، والصحافة أكثر ، وأقوى من اعتمادها على الجنود المسلحة ، والآلات الحديثة ، والعتاد الحربي ، وروح الفروسية والبطولة ، وتجنيد الشعوب ؛ حتى أُتخم بها السامعون ، ومجَّها ، وعافها المستمعون ، وسخر منها الأجانب ، والمنافسون .

وقالت إسرائيل في إحدى إذاعاتها الحربية : « استمرُّوا يا زعماءَ العربِ في خطبكم ، واختلاقِ القصص ، والأساطير ، فإذا جدَّ الجدُّ ، وآن الأوان ؛ علمتم ما هي إسرائيل . هذه ساعة العمل ، لا ساعة الكلام ، وإنَّ الدعاوى الفارغة لا تقدِّم ، ولا تؤخِّر » .

وكانت مع الأسف الجمهورية العربية المتحدة (مصر) من أبرع هذه الحكومات في صناعة الكلام ، فقد كانت صحافتها ، وإذاعتها هي الجنود الحقيقية التي تعتمد عليها ، وتتطاول بها ، ويخاف زعماء العرب ورؤساء الحكومات من تعرضها لهم ، ونهشها لأعراضهم ، وكرامتهم ، وقد كانت معركة كلامية حامية في هذه البلاد تتسابق فيها في المهاجاة ، والتراشق بالكلام ، والتنابز بالألقاب ، واختلاق التهم ، والقصص .

وكان للجمهورية العربية المتحدة (مصر) الزعامة في هذا الميدان ، كما كانت لها الزعامة في كل ميدان من ميادين الأدب ، والثقافة ، فقد اجتمع عندها من الكتاب المحترفين ، والصحافيين البارعين ، والمذيعين المتحذلقين الثرثارين[١] ما لم يجتمع لأيٍّ حكومةٍ شرقيةٍ ، فضلاً عن حكومة عربية .

زد على ذلك كلِّه اعتماد هذه الحكومات واعتماد زعيمتها (مصر) على القوى الخارجية ، وعلى الأوضاع ، والظروف العالمية التي ساعدت (السيد الرئيس)[٢] في كسب معركة (القنال)[٣] ، وشقَّت له الطريق إلى ذلك ، وقد اتخذها عصاً يتوكَّأُ عليها في كلِّ معركة!

في هذه الظروف ، والأجواء ، وبين هذه الأخلاق ، والاتجاهات قامت المعركةُ الحاسمةُ بين الحكومات العربية (وهي مصابة بهذه العلل كلِّها ، وفي إفلاسٍ روحي ، وضعفٍ خُلقي ، وأزمة في الرجال ، وفي العاطفة ، والحماسة ، والانسجام ، والوحدة) وبين

---

(١) أمثال أحمد سعيد .

(٢) جمال عبد الناصر .

(٣) عام ١٩٥٦م وهو ما عرف بالعدوان الثلاثي ؛ الذي اشتركت فيه بريطانية ، وفرنسة ، وإسرائيل عقب تأميم شركة قناة السويس ، وكانت النتيجة أن احتلت إسرائيل سيناء ، واحتلت الجيوش البريطانية ، والفرنسية مدن القناة ، وقد أظهر أبناء الشعب المصري المسلم بطولات خارقة في التصدي للغزاة ، وخاصة في مدينة بورسعيد ، إلا أن القوات الغازية لم تنسحب إلا نتيجة تدخل دولي .

إسرائيل . والحكومات العربية لا تزال تسمي هذه المعركة ؛ حتى اللحظة الأخيرة : معركة العروبة ، والمعركة المصيرية .

وقد سمع الناسُ في الإذاعةِ رئيسَ وزارة في حكومة عربية كبيرة يفتتح حديثَه ؛ والحربُ قائمةٌ على قدمٍ وساقٍ بقوله : « باسم العروبةِ الخالدةِ ، تحية العروبة لكلِّ عربيٍّ حُرٍّ » . وتجرَّدَ عن كلمةٍ تمتُّ إلى الإسلام ، والدين ، والله ، والرسول بصلةٍ .

والبلاد العربية لا تغشاها روحُ الإنابة ، والخشوع ، والابتهال إلى الله تعالىٰ ، والالتجاء إلى رحمته ، ونصرته ، والاطِّراح على عبوديته ، والتوكُّل عليه ، والتبرؤ من كل حَوْل ، وطَوْل إلا إليه ، كما فعل أسلافهم الأولون ، وحثَّ عليه القرآن ؛ حيث قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٥ ـ ٤٧] .

وخرجت المواكبُ ، والمظاهراتُ في العواصم العربية تهتف : سنسحق الاستعمار الأمريكي ، سنسحق الرجعية العربية ـ التي هي أبغض الأعداء إليها ـ فلم تثبت هذه الحكومات في المعركة إلا ثلاثة أيام ، وطلبت وقفَ إطلاق النار من غيرِ قيدٍ ولا شرطٍ ، وكانَ ما كانَ ، مما ذلَّ به كلُّ مسلم فضلاً عن العرب ، في كل بقعة من بقاع الأرض .

أما إسرائيل فلم تضيِّع ساعةً ، بل دقيقةً في تقوية مركزها ، وتجنيد سكانها ، والأخذ بالجد ، واللباب ، وتهيئة الوسائل ، والأسباب لكسب المعركة ، وغسل العارِ الذي لحقها في معركة القتال .

فلم نسمع بثورة عسكرية فيها ، ولا بقيام حكومة دكتاتورية تصادر جميعَ الحريات ، وتشلُّ الحياة ، وتبلِّح[1] الضمير ، وتحارِبُ كلَّ إصلاح ديني ، أو خلقي ، وتطاردُ كل جماعة تنادي بالتمسك بالتعاليم الدينية ، والأخلاق الفاضلة .

ولم نسمع طوال هذه المدة بإعدام القادة الحربيين ، والضباط العسكريين ، والزعماء السياسيين ، وإجلائهم ، وتشريدهم ، كما نسمع ذلك في كلِّ فترة ، ومدَّة قصيرة عن العواصم العربية .

وركَّزت كلَّ جهودها ووسائلَها على محاربة العدو المحيط بها ، والانتصار عليه ، والدفاع عن الوطن المقدس . ذلك كله في هدوء ، وصمت ، وفي حيطة ، وحذر ، من غير دعاية ، وتهريج ، وطعن في المنافسين ، وإهدار لكراماتهم .

وينسب أهلُها نفوسَهم ودولتَهم وكفاحَهم إلى أنبياء الله ، وأحبائه ، وتنتسب إلى موسى ، وتعتبر كفاحها جهاداً مقدساً ، وحرباً دينية ؛ حيث ينتسب كثير من العرب في مصر إلى فرعون .

---

(١) تبلَّح : ذهب .

وقد فوجىء كثير من أصدقائنا حين رأوا العرب يتناسون الإسلام ، ويتغافلون عن العبادة ، والدعاء ، ويخرجون في غرور وخيلاء ، ورأوا ذلك في (التلفزيون) ، ورأوا اليهود بالعكس ؛ قد صاموا عن بكرة أبيهم يوم السبت ، وخرجوا يرفعون صحف التوراة بأيديهم ، ويدعون الله ، ويسألونه النصر ، والتأييد .

هنالك يقع ما يقصمُ ظهرَ كثير من المسلمين ، والمشاركين للعرب في العقيدة ، والدين ، وفي النسل ، والطين[١] ، المحبين لهم بكل قلوبهم ، وعقولهم ، الذين يعتقدون : أنَّ ذلَّ المسلمين بذلِّ العرب ، وعزَّ المسلمين بعزِّ العرب ، وأنهم كنانة الإسلام ، ومأرز[٢] الإيمان ، وصعب على كثير منهم فهمه ، واحتماله .

ولكنَّ الذي عرف سنة الله في خلقه ، ودرس القرآن دراسةً عميقةً مجرَّدةً ، وقرأ إنكاره على اليهودِ الذين كانوا يعتقدون : أن بينهم وبين الله نسباً ، ورَحِماً ، ولهم عليه دالَّةً وحقاً ، فهم لا يُؤاخَذون على التفريط ، ولا يُعاقَبون على الأعمال ، والأخلاق ، فقال في صراحة ؛ ليست فوقها صراحة ، وفي بلاغة ؛ ليست فوقها بلاغة : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

(١) ومنهم كاتب هذه السطور ، وكثير من أصدقائه ، وذويه .
(٢) مأرز : ملجأ .

بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨] .

وأعلن : أن قانون الجزاء على الأعمال ، والأخلاق عامٌّ محيطٌ ، ليست فيه مداهنة ، ولا محاباة ، وأنه ليس هناك عند الله ما يسمى : (المحسوبية) في الحكومات ، والإرادات ، فقال محذّراً منذراً : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣] .

وذكر : أنَّ السعيَ ، والجهادَ ، لا تتخلّف عنهما نتائجهما ، وأنَّه لا يشترط فيهما مؤمن ، ولا كافر ، فقال : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم : ٣٩ـ٤١] .

وقال : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء : ٢٠] .

ونفى عن نفسه الظلمَ ، وتطفيفَ الكيل ، وبخسَ الحق ، فقال : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس : ٤٤] .

وهدم القرآنُ عقيدةَ تمجيد النسل ، وتقديسَ السلالة ، والاستئثار ببيت خاص ؛ كما كانت شائعةً عند اليهود ، والمجوس ، وفي إيران ، والهند . وأرسى قاعدةَ العمل ، والجزاءِ ، والسعي ، والكفاح ، وربط المسببات بالأسباب ، والنتائج بالأعمال في غالب الأحوال ،

فقال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] . وعاقب على الظلم ، وسفك الدماء البريئة ، والعبثِ بالأرواح في كلِّ مكانٍ ، وزمانٍ ، وفي كلِّ أمةٍ ، وجيلٍ ، وفي كلِّ دينٍ ، وشريعةٍ ، وعاقب على السفاهة ، والرعونة ، وتعطيل العقل ، والمنطق ، وتضييع الأسباب ، والعلل ، والاسترسال إلى الأوهام ، والأحلام ، والجدل ، والكلام في كلِّ بقعة من بقاع الأرض ، وفي كلِّ دورٍ من أدوار التاريخ .

وذمَّ الطاعةَ العمياء الرعناء لأيِّ مزهوٍّ بقوته ، ومغرورٍ بنفسهِ ، لا يرجو معاداً ، ولا يخشى حساباً ، ولا يرقب إلًّا[1] ، ولا ذمَّة ، ولا يعرف هوادةً ، ولا رحمة ، فقال : ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود : ٩٧] .

وقال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود : ١١٣] .

وقد اقترنت بهذه الأخلاق ، والصفات ، وبهذه المناهج من الحياة نقمةُ الله ، وسخطه بقطع النظر عن الأشخاص ، والذوات ، والأفراد ، والجماعات ، والمذاهب ، والديانات ، فكان ما وقع ـ ويا ليته لم يقع ! ـ تصديقاً للقرآن ، وبرهاناً ساطعاً على عدل الله ، وصدق الإسلام ، وصحة ما جاء به الرسول ﷺ ونطق به الكتاب ، والسنة :

(١) إلًّا : قرابة .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

أما بعد : فالكارثة فادحةٌ ، تقصمُ الظهرَ ، وتذيبُ المهجةَ ، وتحيّرُ العقلَ ، وتحطِّمُ الأعصابَ ، وكلُّ ما يقال عنها قليلٌ ، وقاصرٌ ، ولكن هذه الأمة ظلت تحمِلُ النكبات ، وتمرُّ بالكوارث .

كان أولها وأعظمها : وفاة نبيها ﷺ ، وارتداد عامة العرب ، وانحصارُ الإسلام ، والمسلمين ـ وجُلُّهم بل كلُّهم من العرب ـ في مدينة صغيرة ، وقرية ، أو قريتين من الجزيرة يموج حولهم بحر الكفر ، والعداء ، وتكتنفهم إمبراطوريتان عظيمتان ، قد هاجتا عليهم ، وطمعتا فيهم ، فهم كما يقول عروة بن الزبير : « كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ؛ لفقدِ نبيِّهم ﷺ ، وقلتهم ، وكثرة عدوِّهم » .

الثانية : تدفق الجيوش الصليبية ، والحكومات الأوروبية بأسرها ، وخيلها ، ورَجِلها على جزء صغير من المملكة الإسلامية ، ورميها للمسلمين عن قوس واحدةٍ ، واستيلاؤها على القدس ، والمسجد الأقصى ، وكثيرٍ من المدن العربية الإسلامية ، وتحدِّيها للإسلام ، وتهديدها لمركزه ، ومرقد نبيه ﷺ ، فهم في مدِّهم الأول ، كالوتد الحديدي يغرز في خشب طري ناعم ، كما يقول (استانلي لي بول) .

ثالثهما : زحفُ التتر الوحوش على العالم الإسلامي ، وتحطيمهم له من أقصاه إلى أقصاه ، فكانوا يسرحون على جثته ، وأشلائه من غير

خوف ، أو احتشام .

وقد كان العالم الإسلامي مقبرة واسعة ، يهيمن عليها الموت ، ويسود عليها الصمت الرهيب ، وقد قطع المتفائلون الأقوياء الرجاءَ في نهضتهم .

ويذكر هذا الحادثَ المؤرخون العرب ، فتنهمل عبراتُهم ، وتتقطَّع أنفاسهم ، ويفضِّلون السكوت على الحديث ، والموتَ على الحياة .

ويذكره المؤرِّخُ (ابن الأثير الجَزري) فيقول : « لقد بقيتُ عدّةَ سنين مُعْرِضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها ، كارِهاً لذكرها ، فأنا أقدِّم إليه رجلًا ، وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهلُ عليه أن يكتبَ نَعْيَ الإسلام ، والمسلمين ؟ ومن الذي يَهُونُ عليهِ ذِكْرُ ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مِتُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسياً ! » .

وكانت هذه الكوارث خليقةً بالقضاءِ على أمة من أعظم الأمم ، ولكنَّ الأمةَ الإسلامية ـ وفي مقدِّمتها ، وعلى رأسها الشعوب العربية ـ خرجت من تحتِ الركام ، ومن تحتِ الأنقاض حيةً جديدةً ، قويةً نشيطةً ، ونفضت عنها غبارَ الموت ، وترابَ القبر ، الذي تخيَّله أعداءُ الإسلام ، واستأنفت السير في إيمانٍ جديدٍ ، وثقةٍ مستأنفةٍ ، ودمٍ فائرٍ ، وحماسةٍ زائدةٍ ، والتاريخُ مستعدٌ لإعادةِ نفسِه ؛ إذا طُلِبَ منه ذلك ، واختيرَ له السبيلُ القويمُ ، والصراطُ المستقيمُ .

إنَّ هذه الكوارث الثلاث التي وقعت في عصور مختلفة ، وانتفاضة

الأمة الإسلامية بعدها ،ونهوض العرب ؛ يلتقي على نقطة واحدة ، وهي : وجود قيادة مؤمنة ، راسخة العقيدة ، قوية الإيمان بوعد الله ، ونصره ، وبصلاح الإسلام ، وبالقوة الكامنة فيه ، شديدة التمسك بتعاليم الإسلام ، وآدابه ، وأخلاقه مجردة عن كل أنانية ، وعصبية جاهلية .

فكان على رأس الانتفاضة الأولىأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ورفقتُه .

وكان على رأس الانتفاضة الثانيةصلاح الدين الأيوبي ، وأنصاره .

وكان على رأس الانتفاضة الثالثةعلماء ربانيُّون ، ووزراء صالحون ، أسلم على أيديهم التتر أفراداً ، وأمة ، وتحوَّلوا حُماةً للإسلام ، وحَمَلةً للوائه في الشرق ، والغرب .

ويلتقي هؤلاء القادة على أنهم كلُّهم كانوا يدعون بدعوة الإسلام ، ويقاتلون بسيف محمد ﷺ واستحقُّوا بذلك نصرَ الله ، وتأييده الخارق للعادة ، وظهرت المعجزةُ ، فقد قال الله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] . وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

يجب علينا ـ نحن معشر العرب والمسلمين ـ أن نستأنفَ السير من جديد ، فنعترفَ ـ بالشجاعة التي عُرِفَ بها العرب في التاريخ ـ : أنَّ الطريق الذي اخترناه لبناء كياننا الجديد ، واستردادِ مركزنا في العالم

الجديد ، وفي كسبِ القوة والوحدة ، وفي إنقاذِ فلسطين كان طريقاً عقيماً منحرفاً ، يحبطُ المساعي ، ويخيِّبُ الآمال ، وأنه لا يقترن بنصرِ الله وتأييده حين لا عزةَ ، ولا كرامةَ ، ولا ظفرَ ، ولا انتصارَ إلا بنصره وتأييده .

ونعترف بشجاعة : أنَّ الله ربط مصيرنا بالإسلام ، وبمحمد النبي الأمي ﷺ وبتأييد دينه : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

ونعترف بشجاعة : أنَّ دعوة القومية العربية ، قد أخفقت ، وافتضحت ، وأنَّها كانت : ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

ونعترف بشجاعةٍ : أنَّ الظلمَ مرتعُه وخيمٌ ، وأنَّ الطريقَ الذي تسلكه الحكومات الدكتاتورية الشيوعية مبيدٌ للبلاد ، مهلِكٌ للحرث ، والنسل ، وأنَّه لا يتفق مع الإسلام ، ولا مع الإنسانية ، ولا مع الحرية الحقيقية ، ولا المساواة ، ولا الجمهورية .

وأنَّ الطاعةَ المطلقة العمياءلقائدٍ ، أو أميرٍ ، والخضوع له في الخير ، والشر ، وفي الطاعة والمعصية ، تسليطه على العقل ، والنفس تسليطَ الأصنام ، والآلهة ، وعدم محاسبته على تصرفاته يجرُّ

النارَ ، والدمارَ على العباد ، والبلاد .

وأن نعترف بشجاعةٍ **بأن الثرثرة** ، وكثرةَ الكلام ، والدعاوَى الفارغة لا تفيد شيئاً ، وأن التفريط في الاستعداد ، وعدم مقابلة الحديد بالحديد ، وأنَّ الغفلة ، والأخطاء الصبيانية في ميدان الحرب **جريمةٌ لا تُغتفَرُ** في عالم الأسباب .

ونعترف بشجاعة : أنَّ العرب في حاجة إلى إيمان جديد بالدين الخالد القويم ، وإلى حبٍّ يملأ جوانحَ النفس ، ويغمرُ العقلَ ، والقلبَ بعنوان مجدهم ، وسرِّ شرفهم ، وكرامتهم ، ومنبع قوَّتهم ، وانتصارهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ ؛ الذي لا يعز العرب ، ولا الأتراك ، ولا الهنود إلا بالإيمان برسالته الخالدة ، وتعاليمه الفاضلة ، وإمامته الدائمة ، وقيادته الرشيدة .

ونعترفُ بشجاعةٍ : أنَّ المسلمين ، والعرب لا تفيدُهم قوةٌ أجنبية ، ولا تخدمهم مصالحُ سياسية للأجانب تتقلَّبُ مع الرياح ، وتخضع للمنافع ، والأرباح .

فليتوكلوا على الله أولًا ، ثم ليعتمدوا على سواعدهم ، وشجاعتهم ، وإيمانهم ، وأخلاقهم ، وصفاتهم ثانياً .

ويجب أن نلتجيء إلى الله أفراداً ، وأمة في ضراعة ، وابتهال ، ونتوبَ إلى الله توبةً جماعيةً نصوحاً ، ونبرأَ إليه من كلِّ حَوْلٍ ، وطَوْلٍ ، ونؤمن بأنه لا ملجأ ، ولا منجى منه إلا إليه .

ولا نكون كالذين قال الله فيهم : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، ولا كالذين قال فيهم : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون : ٧٦] .

بل نكون كالذين قال فيهم : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨] .

وللتوبة الجماعية المخلصة تأثيرٌ غريبٌ في تغيير المصيرِ ، وقلبِ الأوضاع ، فقد حكى القرآن الكريم عن هود عليه السلام قوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود : ٥٢] .

وحكى قولَ نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح : ١٠-١٣] .

ولنصلح حياتنا ، وسيرتنا مع الله ، ومع عباده ، وفيما مكننا فيه ، ومتعنا به ، ولنترك المنازعةَ مع الله ، ومحادَّة رسوله ﷺ ، ومعارضة شريعته ، وقانونه ، ولندخل في السلم كافة ، فلذلك تأثير سحري في الفوز بالسعادة ، والعزِّ والكرامة ، والنجاة من الحكام الظالمين ، والأعداء القاهرين ، فقد قال تعالىٰ : ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ

لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن : ١٦] .

وقال : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وهذا هو السلاح الذي أشار به موسى على قومه في مصر : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٨٧] .

* * *

ألا إنَّ العالم العربي لم يغبْ له نجمٌ ؛ إلا وطَلع له نجمٌ آخر ، ولم يتوارَ فيه بطلٌ ؛ إلا وبرزَ بطلٌ آخر ، ولم يرضَ الله بذله ، وهوانه ، ففي ذلِّه ذلُّ المسلمين ، وفي هوانه شماتةُ الأعداء المتربصين ، فلينفض عنه الغبارَ ، وليستأنف السيرَ ، وليعد إلى مركزه ، ورسالته ، وصفاته الأولى :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٣] .

* * *

المحاضرة الرَّابعة

قارنوا بين الرِّبح والخسارة يا زعماء العرب !

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد : سادتي ، وإخواني!

يَسُرُّني ، ويُسعدني أن أتحدّثَ في (نادي الوحدة الرياضي)[١] ؛ لأنَّ الرياضةَ سواءٌ كانت رياضةً بدنيةً ، أو رياضةً فنيةً تقومُ على الاعتراف بالواقع ، وتقرير الحقائق ، وتحكيمِ العقل ، والمنطقِ ،

(١) محاضرة ألقاها المؤلف في (نادي الوحدة الرياضي) بمكة المكرمة يوم الإثنين الأول من شعبان ١٣٨٧هـ ، وقد حضر الحفلَ عدد كبير من أعيان البلد ، والأدباء ، والصحفيين ، وأساتذة الكليات ، ورجال المعارف ، والشباب المثقف .

ونصُّ هذه المحاضرة نقل من المسجل . ونحن ننشره بناءً على الحقائق التي جاءت في هذه المحاضرة ، والصراحة التي اتسمت بها ، ونحن في أشدِّ الحاجةِ إلى هذه الصراحة في هذه المرحلة الدقيقة ؛ التي تجتازها الأمة العربية .

والتجربة والاختبار ؛ فإنَّها تعتمد على واقع الحياة ، والحقائق الراهنة ، وعلى التجارب المتواصلة ، أكثر مما تعتمدُ على المعاني الشعرية ، والأخيلة البديعة ، والاسترسال في الأوهام ، والأحلام .

وأعتقد : أنَّ الإيمان بالله ، وأنَّ الدينَ الحق يلتقيان مع الفكرة الرياضية ، وبالأصح مع النفسية الرياضية أكثر مما يلتقيان مع الخيالِ ، والشعرِ ، والخطابيات ، والتخييلات ، إنَّهما يلتقيان على الجدِّ ، والصرامة ، وعلى الحيوية ، والواقعية ، ونحن المسلمين اليومَ بصفة عامة والعرب بصفة خاصة في حاجةٍ ملحَّة إلى هذه الطبيعة الرياضية .

نزعم أننا مسلمون ، فلنكن مسلمين حقيقيين ، مسلمين في الحقيقة لا في الصورة .

إنَّ قضية الذين يؤمنون بالدين الحق ـ أيها السادة ـ تختلفُ عن قضية الذين لا يؤمنون بهذا الدين اختلافاً كبيراً .

إنَّ الذين يؤمنون بالدين يجب عليهم أن يُخلصوا لهذا الدين ، وأن يتمسكوا بلباب هذا الدين ، وبحقيقته ، وبمقدار ما يتمسكون به ، ويخلصون له ، ويجدُّون في سبيله ؛ يستحقون النتائج ؛ التي وعدَ بها الله ؛ الذي اختار هذا الدين ، والنصر الذي تكفَّلَ به .

نقرأ في القرآن : أن الله تبارك وتعالىٰ قد طلب من اليهود أن يكونوا متمسكين بدينهم ، مخلصين في دينهم ، صادقين ، آخذين باللباب لا بالقشور ، وبالحقيقة لا بالصورة ، والاسم ، وجعل تمسكهم بالدين

المقياسَ الحقيقيَّ والميزانَ العدل ، فقال :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة : ٦٨] .

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وقد عاقبهم الله على انحرافهم عن دينهم ؛ الذي اختاره لهم ، والذي احتضنوه ، وزعموه عقوبة شديدة ، فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٢] .

فنحنُ المسلمين ، ونحن العرب بصفة خاصة إذا انحرفنا عن هذا الدين ، أو تمسكنا به تمسُّكاً صورياً ، واسمياً فقط لا حقيقياً ؛ لا نستحقُّ نصرَ الله ، ولا نستحقُّ ما وعد الله به من الشرف .

فمصير الأجيال ؛ التي تدين بهذا الدين تتشرّفُ ، وتنتصرُ في المعركة بمقدار ما تتمسك بهذا الدين .

إنَّ وضعنا ـ أيها السادة ! أيها الإخوة الكرام ! ـ كما قلتُ يختلف عن وضع الأمم؛ التي لا تدين بهذا الدين .

إننا لمَّا قبلنات هذا الدين ، والتزمناه ، وأعلنا : أننا مسلمون ؛ وجبَ أن نكونَ مسلمين ، وأن ندخلَ في السلم كافة ، وأن نعطي القياد للإسلام ، وأن نحقق فينا صفات المسلمين ، وأخلاقهم .

وجب أن نكون مسلمين في الحقيقة ، وفي اللباب ، في الروح ، وأن نعامل الله تبارك وتعالىٰ على الحقيقة لا على الصورة ، كما نجرِّب كلَّ يوم .

إن صورة أيِّ دين حق ، إنَّ صورة أيٍّ معنىً من المعاني ، إنَّ صورة حقيقة من الحقائق لا تغني ، لقد قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون : ٤] .

فوضعنا الحاضر : أننا ندَّعي هذا الدين ، أننا ندَّعي أننا مسلمون ، ونطلب من الله أن يعاملنا كمسلمين ، وأن تتحقق تلك الوعود ، وتلك النتائج ؛ التي قرأنا أمثلتها الرائعة في التاريخ ، ولكننا ننسى ؛ أو نتناسى : أنَّ هذه النتائج كانت ـ ولا تزال ـ تابعةً للأسباب الطبيعية ، تابعةً للمقدِّمات الصحيحة .

فالماء ماء ، يروي ، ويشفي ، والطعام غذاء ، يشبع ، ويغذِّي ، والدواء ينجع ، ويبرىء إذا كان على حقيقته .

فالماء لا يروي إذا لم يكن ماء ، وكان صورة للماء ، أو سراباً بِقِيعة يحسبه الظمآن ماءً .

والنار إذا كانت صورةً مجرَّدةً مهما كانت هذه الصورة دقيقة ، وصادقة ، فإننا لا نستطيع أن نستدفىء بها ، ولا أن نكتسبَ منها الحرارة ، أو النور ، وهذه طبيعةُ الأشياء ، ونظام الكون الذي يتحكم

في هذا العالم .

إنَّ كلَّ ذنبنا ، وخطئنا : أننا طلبنا من الصُّور ما لا تعطيه إلا الحقائق . فكلُّ هزائمنا ، وكلُّ نكباتنا راجعة إلى أننا توقعنا من الصُّور ، توقعنا من الأسماء ، توقعنا من المظاهر ، توقعنا من الدعاوَى ، توقعنا من الكلمات تلك النتائج الحية الضَّخمة الحقيقية ؛ التي كانت ، ولا تزال منوطة بالحقائق .

إننا برزنا إلى الميدان كمسلمين بالاسم كمتظاهرين بالإسلام ، كمتشبِّعين من غير شبع ، فلما وقع النضال بين الحقيقة ، والصورة ؛ خذلتنا الصورة في الميدان ، وافتضحنا أمام الناس ، أمام العالم .

إننا إذا برزنا إلى الميدان كمسلمين حقيقيين ـ ولو كنا في قلة ـ لتكررت قصة الحوادث التي نقرؤها في التاريخ ، ولتكررت تلك المعجزة ؛ التي كاد العالم يقطع الرجاء منها .

إنَّ الحقيقةَ حقيقةٌ منذ آلاف السنين ، لم تتغير ، ولم تتبدل ، إذا كانت حقيقةُ الأدوية لم تتغير ، ولم تتبدل كما نجرِّبُ كلَّ يوم ، إذا كانت حقيقة النار هذه ؛ التي تخضع لنا ، والتي نلهبها ، ونطفئها ، إذا كانت حقيقةُ النار لا تزالُ منذ آلاف من السنين كما كانت في عهد آبائنا ، وأجدادنا ، وقبل آبائنا ، وأجدادنا ، كما يقص علينا التاريخ ، وكما تشهد بذلك الحفريات ، والآثار ، وإذا كانت حقيقةُ البحار هي حقيقة البحار ، وإذا كانت حقيقةُ الغذاءِ ، والماءِ لم تتغير مع الزمن ،

فلماذا نعتقد : أن الإيمان وحده قد فقد حقيقته ؟ !

لقد كان الإيمانُ يتغلَّب على هذه الحقائق كلِّها ، لقد كانت النار تفقد خاصِّيَّتها ، وتفقد حقيقتها ، وطبيعتها أمام هذا الإيمان ؛ إذا كان الإيمان أكثر التهاباً ، وإذا كان أكثر قوة ، وإذا كان أكثر حقيقة من هذه النار ، فقد أصبحت برداً وسلاماً على إبراهيم .

ولماذا لا تخضع ، ولا تنكص هذه النار ؛ التي خلقها الله لمصالح العباد ، التي خلقها ليقضي الناس بها مآربهم التافهة أحياناً ، والسطحية أحياناً ؟ ! فلماذا لا تخضع هذه النار ، ولا تنهزم أمام الإيمان ؛ الذي خُلِقَ لمصلحة الإنسانية الكبرى ، لمصلحة الإنسانية الخالدة ؟ !

فلتخضع النارُ أمام هذا الإيمان ، ولتخضعِ البحار أمام هذا الإيمان ، ولتخضع الجبالُ أمام هذا الإيمان ، ولتتغير هذه القوانين الطبيعية ؛ التي جربها الناس من آلاف السنين أمام هذا الجديد ؛ الإيمان الفتي ؛ الإيمان الدافق بالحياة .

تذكرون وقعة المدائن : لمَّا بلغ سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ بجيشه إلى دجلة ؛ وهي تفيض ، وترمي بالزَّبَد ؛ وقف هنيهة ، وقف وقفة تأمل ، وقفة استعراض ، وقال لسلمان الفارسي : ماذا ترى ، هل نخوض هذا النهر ، أو ننتظر السفن ؟ فقال سلمان

ـ رضي الله عنه ـ : « إنَّ هذا الدين لجديدٌ »[١] ! .

يعني : أن الله اختار هذا الدين ، وقرر : أنه سيظهره على الأديان كلها ، وأنه يحيي به الإنسانية ؛ التي ماتت ؛ فأنا لا أصدق : أنَّ هذا الدينَ سينهزم ، ويتراجع أمام نهر من الأنهار . ولماذا لا يخضع هذا النهر أمام هذا الدين ؟ ! لماذا يخضع هذا الدين أمام هذا النهر ؟! هذه العقلية المؤمنة هي التي كانت تسيطرُ على النفوس المسلمين .

ثم قال له سلمان : ولكن انظر في الجيش ، هل ظهرت فيه ذنوب ، وانتشرت ؟ فإذا رأيتَ : أنَّ هذا الجيشَ بعيدٌ عن هذه الذنوب ؛ فصدِّق أنَّ اللهَ سبحانه وتعالىٰ ناصره ، وأنَّه سيتغلَّبُ على هذه الحقيقة الضعيفة . وكذلك كان .

تقرؤون في التاريخ : أنَّ جيش المسلمين قد خاضَ النهرَ ، وكان المسلمون يتحدَّثُ بعضُهم إلى بعض ، ويمازحُ بعضهم بعضاً ، كأنَّما يمشون على البر ، فلما رآهم الفرس ؛ قالوا كما نقله (الطبري) بالنص : « ديوان آمد ! ديوان آمد ! » يعني : جاء الجن ! جاء العفاريت !

إنَّ هذا الإيمان هو الإيمان ، وإنَّه لا يزالُ يحمِلُ تلك القوة التي تقهر القوى الطبيعية ، وتتغلَّبُ على القِلة والكثرة ، والضعف ، والقوة التي آمن بها الضعفاء ، والمقلِّدون .

---

(١) انظر شرح هذه الكلمة ص١٤٥ من هذا الكتاب .

ولكننا قد أفلسنا من هذه القوة ، واعتمدنا على ما يشترك فيه المسلم ، والكافر ، والمصلح ، والمفسد ، والمطيع ، والعاصي ، وقد يتفوق فيه الكافر على المؤمن .

إنَّ فضلَ البندقية ـ أيها الإخوان ـ هو الرصاص ، فإذا فقدت البندقية الرصاصَ كانت أضعفَ من الخشب ، إنَّ الخشب هو أنفعُ ، وأجدى من البندقية الفارغة التي ليست فيها رصاصة ؛ لأنَّ الخشب يستعمل بأساليب متنوعة ، وبطرق كثيرة ، ولكن البندقية لا تُستعمل إلا بطريقة واحدة ، إنَّ قوتها تتوقف على رصاصتها ، فإذا فُقدت الرصاصةُ ؛ فقد كلُّ شيء .

فالمؤمن إذا فقد الإيمان ، إذا فقد الاعتماد على الله ، إذا تجرد عن الصفات ؛ التي أكرمه الله بها ، واختُصَّ بها من بين سائر الأمم ؛ أصبح كسائر الناس ، وأذلَّ وأضعف منهم أحياناً .

إن النار نار إذا كانت فيها حرارة ، فإذا فقدت هذه الحرارة ؛ فليست لها قيمة ، إن الملح ملح إذا كانت فيه ملوحة ، فإذا فقد الملح الملوحة ؛ أصبح مثل الحصى ، وأصبح الخزف أثمن منه ، يغني عن أشياء ، ويفيد في مجالات كثيرة ، وفي أعمال كثيرة ، ولكن الملح لا ينفع إلا إذا كانت فيه الملوحة .

إن المسلمين كانوا أقوياء بإيمانهم ، أقوياء بهذا الدين ، كانوا يؤمنون به ، أقوياء بأنهم يؤمنون بحقائق يُكْفَر بها ، أو لا يعرفها

الآخرون ، فكانوا ينظرون إلى عالم لا شأن لغيرهم به ، وهو الذي أشار إليه تبارك ، وتعالىٰ بقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

فإذا أصبح المسلم لا يرجو من الله شيئاً ، فإنَّه قد أصبحَ في مستوى هؤلاء الماديين ، بل أخفضَ مستوًى من هؤلاء الذين آمالهم طويلة عريضة في الدنيا .

نحن المسلمين ، نحن العرب ـ أيها الإخوان ـ برزنا إلى الميدان بهذه الحياة المهلهلة السخيفة ، الناعمة الرقيقة ، المريضة العليلة ، الضعيفة الهزيلة ، الموبوءة الثقيلة ؛ التي يشترِكُ فيها غيرُنا ؛ بل يمتازون عنا بأنَّ عندهم من الصرامة ، والجد ، ومن العزم وقوة الإرادة ، ومن الاستماتة في سبيل المبدأ ، والثبات على العقيدة ، ومن التجرُّدِ لمقاصدهم ما لا يوجدُ عندنا في بعض الأحيان .

فلماذا ننتصر عليهم ؟ ولماذا نشكو ؟ ولماذا نعتب ؟ ولماذا تساور نفوسنا ، وعقولنا هذه الظنون ، وهذه الرِّيبُ ؛ التي تساورنا جميعاً ؟ بماذا نمتازُ عنهم ؟!!

الحق : أن أعداءنا متفوقون علينا ـ كما قلتُ ـ بالصرامة ، والجد ، وبالاستعداد ، وإعداد القوة ، وبالانسجام ، والاتحاد ، وإنَّ المسلمين كانوا ينتصرون على المنافسين ، على الأمم المعاصرة

بإيمانهم ، بأخلاقهم ، بزهادتهم في الدنيا ، باستهانتهم بالزخارف والمظاهر ، بحنينهم إلى الشهادة ، وتطلُّعهم إلى عالم الغيب ، وبإيثارهم الموت في سبيل الله على الحياة في اللذات ، والشهوات .

لقد كانت الجيوشُ تقاتِلُ للأمراء ، كانت تساق إلى ساحة الحرب سوقاً ، وتحشَرُ إلى ميدان القتال حشراً ، وكانت الحروبُ تفرَضُ عليها فرضاً ، وهي راغمة مكرَهة ، تلعن هذه الحكومات المغتصبة الظالمة ، وكانت تقاتل رغم أنفها ، ورغماً عن نفسها .

وكان المسلمون إنما يقاتلون ليُكْرَموا بالشهادة ، ولينالوا ثواب الدنيا ، والآخرة . وفَرْقٌ بين الذي يطلب الحياة ، ويكره الموت ، ويبحث عن سبيل النجاة ، وبين الذي يبحث عن الموت أينما وجد ، يبحث عنه في مظانِّه ، وغير مظانِّه .

السبيل الوحيد للنصر ـ أيها الإخوان ـ أن نكون مسلمين حقيقيين ، وأن نحمل تلك الجذوة الإيمانية التي كانت تلهب نفوسنا ، وكانت جديرة بأن تحرق الدنيا كلها ، إذا عادت هذه الجذوة ، جذوةُ الإيمان ، وشعلة الحياة أعاد التاريخ نفسه .

إننا لمَّا أخلصنا للإسلام في الماضي ، ولمَّا اندمجنا في الإسلام ، وتجرَّدنا عن كلِّ شعار من شعارات الجاهلية ، وحملنا مشعل الإسلام في أيدينا ؛ أصبحنا سادة العالم ، كنا نسيطر على أكبر رقعة من رقاع العالم المتمدن المعمور ، وانتشرت عقيدتنا ، وحضارتنا ، وآدابنا ،

وأخلاقنا ، وعلومنا ، ولغتنا ، كما ينتشر ضوء النهار .

وكانت لغتنا تنتشر في العالم بالسرعة التي لم تُعْرَفْ لأيِّ لغة أخرى ، تنتشر من غير سلطة سياسية ، ومن غير استعمار .

لقد أصبحت هذه اللغة العربية ، لغة العلم ، لغة الثقافة ، ولغة التأليف ، وتغلغلت في أحشاء العالم الإسلامي ، وكان المسلمون في كلِّ بقاع الأرض يتنافسون في تعلمها ، وفي التضلُّع منها .

كانوا عجماً بالثقافة ، وبالوراثة ، وباللغة ، وبالنشأة ، ولكنهم كانوا يؤثرون هذه اللغة للكتابة ، والتفكير ، والفلسفة ، والعلم .

إنكم تعرفون أولئك النوابغ الذين نهضوا في العالم الإسلامي في القرون المختلفة ، هذا (أبو علي الفارسي)[١] ، وهذا (جار الله الزمخشري)[٢] ، وهذا (مجد الدين الفيروزأبادي)[٣] ، وهذا

---

(١) الحسن بن أحمد ، أبوه فارسي ، وأمه سدوسية من سدوس شيبان ، من أئمة العربية وصاحب التصانيف البديعة ، توفي في بغداد سنة (٣٧٧هـ) وقد جاوز التسعين .

(٢) محمود بن عمر من أئمة العلم ، صاحب المصنفات السائرة كالكشاف في التفسير ، والفائق في غريب الحديث وغيره ، ولد عام ٤٦٧هـ ، وتوفي عام ٥٣٨هـ .

(٣) محمد بن يعقوب إمام في العربية ، صاحب القاموس المحيط ، وغيره من التصانيف ، ولد بكازرين ، وهي بلدة بفارس سنة ٧٢٩هـ ، وتوفي في زبيد في اليمن سنة ٨١٧هـ وقد ناهز التسعين .

(السيد المرتضى الزبيدي الهندي)[١] ، كلهم كانوا عجماً . مَنْ أجبرهم على تعلُّم هذه اللغة ؟

إنَّ (أبا حامد الغزالي)[٢] كان يؤلِّفُ كتابه الأثير الحبيب باللغة العربية ، ويؤثر اللغة العربية للتأليف ، ثم يترجِمُ وينقل هذا الكتاب إلى لغة أمته ، وبلاده ، كما فعل في (إحياء علوم الدين) ، و(كيمياء السعادة) مع أنه فارسي من (طوس) وهكذا كان أولئك النوابغ الذين لا يحصيهم إلا الله .

إنني لا أذكر لكم العلوم الدينية ؛ لأن الدوافع الدينية كانت قوية دائماً ، ولعلَّكم تعلمون بأنَّ هناك دافعاً دينياً ، ولكنني أضرب لكم مثلاً باللغة العربية وآدابها ، ما الذي فرض هذه اللغة على الأجيال كلها ؛ التي كانت لا تتصل بهذه اللغة بنسب ، ولا بنشأة ، ولا سياسة ، ولا بإدارة ؟

ولم تزل اللغة العربية هي لغة العلم ، ولغة التأليف في بلاد عريقة العجمة ، في بلاد توارثت لغتها ، واحتضنتها ، ولا تزال تعتز بها ،

---

(١) محمد بن محمد الحسيني علامة باللغة ، صاحب (تاج العروس في شرح القاموس) ، و(إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) ، ولد في الهند عام ١١٤٥هـ ، وتوفي بالقاهرة عام ١٢٠٥هـ .

(٢) محمد بن محمد ، حجة الإسلام ، الفقيه الأصولي المتكلم المتصوف ، الإمام الجامع ، صاحب المؤلفات العظيمة ، ولد عام ٤٥٠هـ ، وتوفي عام ٥٠٥هـ .

وهي لغات غنية خصبة ، فيها ثروة علمية هائلة ، ومع ذلك كله ، لا تزال اللغة العربية هي اللغة الحبيبة المفضلة في بلادنا : الهند ، وباكستان .

إنني أذكر لكم ـ أيها الإخوان ـ على سبيل المثال : أنني كنت سنة ١٩٦٠م في (كيرالة) بالمنطقة الجنوبية في الهند ، وهي بلاد عريقة في الحضارة الهندية ، وقد كنتُ مضطراً في بعض الأحيان للتفاهم مع إخواني المسلمين هناك باللغة العربية ، فما الذي نشر هذه اللغة العربية في تلك البلاد البعيدة ؟ وما الذي جعلها تسيطر في بعض الأحيان على اللغات المحلية ؟

هي العاطفة الدينية ، هي الروح الدينية ، التي تغلغلت في الأحشاء ، هي رابطتها بالقرآن ، وصلتها بالسنة ، ورابطتها بالإسلام .

إذا انقطعت هذه الرابطة ـ لا سمحَ الله بذلك ـ كما يريد كثيرٌ من القوميين ؛ فلا صلةَ لنا ـ نحن العجم ـ بهذه اللغة ، على غناها وعلى ثروتها ، وعلى جمالها ، وعبقريتها ! إنَّ الشيء الوحيدَ الذي يربط هذه الشعوب كلها على اختلاف ألسنتها ، وثقافاتها ، وأوطانها ، وبلدانها ، باللغة العربية هي الرابطة الدينية الروحية ، هي التي تجعل المسلمين في بلاد العجم يغارون على هذه اللغة أكثر مما يحرصون على تعلم اللغات الغربية .

جربوا أيها القوميون ، وجرِّدوا العروبة ، وجرِّدوا اللغة العربية من

الرابطة الروحية الدينية ؛ التي تربط الشعوب ، والأمم بهذه اللغة ، وبهذه البلاد ، ثم انظروا ماذا تفقدون ، وماذا تجدون ؟ ما هي نسبة ربحكم من خسارتكم ؟ وما هي نسبةُ إفلاسكم من كسبكم ؟ ستعيشون في عزلةٍ عن العالم .

إنَّ هذا العالم الإسلامي الفسيح ؛ الذي لا يزال من ورائكم ، وهو يؤيدكم في جميع قضاياكم ، والذي ينتظر أن تسمحوا له بالخوض في هذه المعركة ، إنَّ هذا العالم تنقطِعُ صلتُه عنكم ، وتعيشون في عزلة .

خذوا القلم ، وخذوا أكبرَ صفحةٍ من ورق ، واكتبوا فيها هذه النقطة التي كان عليها العرب قبل الإسلام . ثم مدُّوا هذه النقطة بفضل اللغة العربية ، وفضل النسب العربي ، وفضل الثقافة العربية ، وفضل الخصائص العربية ، وفضل كل ما تستطيعون أن تفرضوه ، ثم انظروا إلى أين تمتد هذه النقطة ؟ الإسلام هو الذي مدَّ هذه النقطة ، وعرَّضها ، وطوَّلها ، ووسَّعها إلى أن وصلت إلى أقاصي العالم المتمدن المعروف .

إن هذه الروح الإسلامية لمَّا فقدناها ، وقلنا : إنَّها عتيقة ، إنَّها بالية ، إنَّها رجعية ، رجعنا إلى هذه القوميات ، فماذا وجدنا عوضاً عمَّا فقدنا ؟ ما هو الشيء الوحيد الذي اكتسبناه ؟

إنَّ العالم كلَّه بما فيه من سياسة ، وإدارة ، وتجارة ، وتبادل ، وحرب ، وصلح ، يقوم على الموازنة بين الربح ، والخسارة ،

والإنفاق ، والاكتساب ، والوارد ، والصادر .

إنَّ التاجر الصغير يوازن بين الدخل ، والصرف ، وإذا تعطَّلت الموازنة ؛ تعطَّل نظامُ المدنية ، وأصبحَ الأمر فوضى ، فلماذا لا نقارن نحن العرب بين ما ربحناه بالقومية ، والاشتراكية ، والتقدمية ، وبين ما خسرناه بإقصائنا العنصرَ الديني ، وتجردنا عن الروح الدينية ، وشننا الغارة على ما نسميه (الرَّجعية) ؟

لقد كنا نسمع : أن (الإنسان العربي المارد العملاق) سيخرج من القمقم ، وسيدهش العالم ، وسيشغل سمع الزمان ، وبصره ، وبحثنا عن هذا (المارد العملاق) في كلِّ مكانٍ ، فما وجدنا له عيناً ، ولا أثراً ، بل الذي وقع : أن القزم اليهودي ، هذا الإنسان التافه ، الإنسان الأفَّاق[١] ، هذا الإنسان الذليل ، الذي كان مَضْرِبَ المثل في الجبن ، والنذالة تسلّط على (المارد العملاق) لما فقد هذا العاطفة الدينية ، وفقد تلك الأسلحة المعنوية ؛ التي كان يتسلَّح بها .

لقد وقع ما لم يكن يتوقع في المنام قبل أيام ، لقد لحق بنا العار الذي لا تغسله مياه سبعة أبحر ، والتصق بكلِّ مسلم ، وبكلِّ عربي في كل بقعة من بقاع الأرض .

ماذا استفدنا من هذه القيادات اللا دينية التقدمية ؟ ماذا استفدنا من هذه القومية ، والاشتراكية ؟ .

(١) الأفاق : المنفرد الذي يضرب في الآفاق متشرِّداً .

إنَّ هذه الحياة كلَّها قائمة على التجربة ، فإذا أصبحنا لا نستفيدُ من التجارب ، ولا نتلقَّى منها درساً ، ولا نصحِّحَ بها خطأً ، واعتمدنا على الأخيلة ، والدعاوَى ؛ فقد تعرّضنا لخطر عظيم ، قد يودي بحياتنا .

وإذا فقدنا هذه الثروة الهائلة التي اكتسبناها عبر القرون ، والأجيال ، والتي هي تراثُ المدنية ، وتراثُ الإنسانية ؛ إذ أصبحت الإنسانيةُ لا تعتمد إلا على التجارب ؛ فإننا نفقدُ الثقةَ بمستقبل الإنسان ، وإذا أصبحَ الإنسانُ لا يؤمن بتجاربه ، ولا يزال يسترسل في الأوهام ، والخيالات ، ولا يزال يعيش في البرج العاجي ؛ فلا معقل للإنسانية .

إنَّ العلوم الرياضية كما قلتُ تقوم على التجارب ، إنَّها تقوم على الاستقراء ، وقد نهضت المدنيةُ نهضتَها لما اعتمدت على الاستقراء بدل القياس ، فماذا وجدنا لمَّا آثرنا القومية على الإسلامِ ، أو على الأقل لما تنكَّرنا للإسلام ، ولمَّا أنكرنا فضلَ الإسلام في تكوين مجتمعنا ، ولمَّا أبينا أن نلتجىء إلى الإسلام ؟ إنَّ هذه السنين تكفي للتجربة .

لقد اجتمع في الشعوب العربية الشقيقة العزيزة من الثروات ، والخيرات ، ومن وسائل الحياة ، ومن وسائل المقاومة ، ومن وسائل النشر ، والدعاية ما لم يتهيأ لشعوبٍ كثيرةٍ .

لقد كان كلُّ شيء مهيئاً لتحقيق النصر ، فماذا كان ينقص هذه الشعوب ، إنَّما كانت تنقصُها الشجاعة التي لا يخلقها إلا الإيمانُ ، والعقيدة .

كان كثير من القادة يتحرَّجون ، ويتضايقون من التصريح بالإسلام ، لقد كان ثقيلاً عليهم أن يقولوا : نحن مسلمون ، ونحن نعتمد على الله ، ونعتمد على الإيمان ، ونعتزُّ بالإسلام ، فماذا كانت النتيجة ؟ ! هل ننتظر نتيجة أشنع ، وأبشع ؟ !

لقد وصلنا إلى الدَّرْكِ الأسفل ، إلى دَرْكٍ ما بعده دَرْكٌ ، كيف يجوز لنا بعد الآن أن نتنكر للإسلام ، وأن نلتجىء إلى هذه الأصنام ، التي نحتناها بأيدينا ، ولا نزال ننحتها ، ونجمِّلها ، ولا نزال ندخل عليها تحسينات : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات : ٩٥] .

لقد عكفنا على هذه الأصنام نعبدها ، ورفضنا عبادة الله تبارك وتعالىٰ ، واستنكفنا عن الانتسابِ إلى الإسلام وحده ، فأين ذلك (المارد العملاق) الذي بشرنا به ؟ !

لقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أولئك النحاف الضعاف ، الفقراء الأميُّون ، أولئك الذين كانوا لا يُقام لهم وزن ، كانت تزدريهم الأعين ، ثيابهم مرقَّعة ، ونعالهم مخصوفة ، وأجفان سيوفهم بالية ، ماذا صنعوا من الأعاجيب ؟ !

وكيف اكتسحوا العالم من أقصاه إلى أقصاه ، وفتحوا نصفَ

المعمورة في نصف قرن ؟ !

وكيف أقاموا دولةً ، وشيَّدوا حضارةً ، وأخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؟ !

إننا إذا تمرَّدنا على هذه الحقائق ، وإذا طمسنا على هذه التجارب ؛ فإننا نسيء إلى كرامة الإنسانية ، وننحطُّ إلى مستوى أقلَّ من مستوى الحيوانات .

إنَّ الحيوانات تعتمد على التجارب ، إنَّ الحيوان إذا جرَّبَ شيئاً ؛ فإنّه لا يعود إليه في الغالب ، فما لنا نعود إلى ما جربناه مراراً ، وتكراراً ؟ !

إنَّ الحيوان إذا آذاه إنسان ، أو أهانه ؛ يصبح له عدواً ، إنه يحملُ له حقداً ، إنه يبتعد عنه ، ولكننا نحن مستعدون أن ننخدع بمن خدعنا ، ونُلْدَغَ من جُحْرٍ مرتين ، بل مراراً ! !

إنَّ الذين جرُّوا علينا هذه الكارثة لا يزالون يسيطرون على عقول كثير منا ، ولا نزال نخضع لهم بالإجلال ، والإكبار .

لو كانت عندنا بقية من حياء ، بقية من غَيْرة ، بقية من إنسانية ، لحاكمناهم محاكمة المجرمين القاتلين ، الذين يقتلون الأمم ، ويدوسون كرامة البلاد ، إنهم جَنَوا على شخصيتنا ، جَنَوا على شرفنا ، جَنَوا على تاريخنا ، وأكبر جناية جنوها علينا على مَرِّ التاريخ

أنهم جَنَوا على تاريخنا .

لقد كان تاريخُ الإسلامِ رصيدَنا ، نلتجىء إليه ، ونستمدُّ منه في كلِّ حين . كان من أقوى الوسائل لإثارة الشعور الإسلامي ، ولإلهاب الجذوة الإيمانية في الصدور .

لقد كان هذا التاريخ الإسلامي العربي ـ تاريخ الفتوح الإسلامية ـ سندنا في خطاباتنا ، وفي كتاباتنا ، كان العصا ؛ التي نتوكأ عليها دائماً ، كعصا موسى التي كان يتوكأ عليها ، ويهشُّ بها على غنمه . وكنَّا نفتخر به ، ونستشهد به أمام مواطنينا في بلاد العجم ، فنقول : هؤلاء أبطالنا ، هؤلاء قادةُ الفتح الإسلامي ، هذا خالد بن الوليد ، وذلك سعد بن أبي وقاص ، وهذا عقبة بن نافع ، وهذا طارق بن زياد ، وهذا محمد بن القاسم ، ونقول :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جريرُ المجامِعُ

أولئك الذين خرجوا بحفنة من البشر ، بقلةٍ من العدد ، فقراء لا زاد عندهم ، ولا مدد ، وفتحوا هذا العالم الواسع .

ولكن هذه النكبة أفقدت هذا التاريخ الإسلامي الشيء الكثير من روعته ، وجلاله ، وأضعف ثقةَ المواطنين في كلِّ بلد بهذا التاريخ ، وأصبحوا يشكُّون في صدقه ، ويقولون : أساطير الأولين .

كيف نصدِّقُ هذا التاريخ ؟ وكيف نصدِّقُ : أنَّ تلك القلة غلبت الكثرة ، وهذا العالم العربي ، وهذه الحكومات العربية كلُّها خفَّت إلى

إسرائيل ، ورمت بثقلها عليها ، وتحدَّتها تحدِّياً لم نسمع بمثله في الزمن القديم ، تحدياً أصم الآذانَ ، وخلعَ القلوبَ ، ولكن ماذا رأينا ؟

رأينا هذه الحفنة البشرية ، هؤلاء الشذاذ الأفّاقين[1] ، هذه الشرذمة القليلة التي لفظتها أراضيها ، وبلادها استولت على هذه الحكومات ، وهنالك تخرس الألسن ، وتنتكس الرقاب ، ويخون الجواب ، إنّها خسارةٌ لا تعوّضُ ، إنّا لغزٌ لا يفضُّ!

ما هو المتوقّع ، والمعقول على إثر هذه النكبة أيها الإخوان ؟ أليس أن نحكم على الحوادث حكماً صحيحاً ، وعلى الرجال ، والشخصيات ؛ التي تحمَّلتْ مسؤوليتها ، نقرر : أن هؤلاء قد خسروا المعركة ، وأنهم ليسوا جديرين بالقيادة ، بل إنَّهم كانوا سبب النكبة ، وأنَّ الطريق الذي اختاروه طريقٌ عقيمٌ مسدودٌ ، وأن نتبرأ منهم ، ونحمِّلهم تبعةَ هذه الهزيمة ، وهذه المأساة ، وألّا نشعُر بميل إليهم .

إنَّ الأمة إذا كان فيها شعور ، إذا كان فيها وعيٌ ؛ حاسبت هؤلاء القادة حساباً شديداً .

إنني لا أتحدَّثُ عن الوعي الإيماني ، الوعي الذي كان يتصف به صحابة الرسول الله ﷺ ، والتابعون لهم بإحسان . إنهم كانوا لا

(١) أفاقون : منفردون يضربون في الآفاق مشرَّدين .

يخضعون للرجال ، إنهم كانوا دائماً يخضعون للحقائق ، ويحاسبون ، الخلفاء والأمراء على تصرفاتهم ، وأخطائهم ، ويقولون كلمة حق عند سلطان جائر .

ولكنني أتحدث عن الوعي السياسي ، بل الوعي المدني ؛ الذي رأينا مظاهره ، وأمثلته الرائعة في الشعوب المادية ؛ التي لا تدين بالإسلام .

إنَّ الإنكليز ، والفرنسيين لا يغفرون للذي يجني عليهم ، ويلوِّث كرامتهم .

إنّ الإنكليز لم يغفروا للمستر (إيدن) رئيس وزراء بريطانية الأسبق ، لما أخفق في معركة السويس ، وألحقَ بالإنكليز العار .

ماذا فعل إيدن ؟ إنَّما أخطأ في التقدير ، ولكنَّ الشعب الإنكليزي لم يسامحه ، ولم يغفر له ، وقال له : تفضل ، واترك كرسيَّ الحكم ، واذهب إلى زاوية من زوايا التاريخ ، وإلى مؤخَّرة الشعب . وكذلك توارثت أمم كثيرة بُغْضَ الرجال الذين تآمروا عليها ، وامتهنوا كرامتها ، ولوَّثوا شرفها .

هذه طبيعة في الإنسان ، وهو السرُّ في رمي الجمرات ، وقد حافظت الشريعةُ الإلـهية على هذه الطبيعة ، فما هذا الرمي عند الجمرات إلا إثارة للبغض والتِّرة التي يجب أن نحملها لعدونا الأكبر ، الذي كان سبب شقائنا ، والذي حاول مراراً أن يمنع إبراهيم عليه

السلام من امتثاله أمر الله ، والذي لا يزال قائماً لنا بالمرصاد[١] .

إنَّ العرب عُرفوا في التاريخ بالغَيْرة الشديدة ، عُرفوا بالنخوة والإباء ، عُرفوا بالحكم العادل على أمتهم ، وعلى أمرائهم ، وعلى صالحيهم ، وزهَّادهم ، لم يهابوهم ، ولم يداهنوا ، ولم يمتنعوا عن كلمة الحق ، هؤلاء العرب نرى عدداً من شبابهم اليومَ في بلادٍ كثيرة ، لا يزالون خاضعين لأولئك القادة الذين ورَّطوهم في هذه النكبة ، ويصدقُ عليهم قولُ شاعرهم القديم :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إساءةِ أَهْلِ السُّوءِ إحْسَانا
كأنَّ ربَّكَ لَمْ يَخْلُقِ لِخَشْيَتِهِ ... سواهُمُ مِنْ جميعِ النَّاسِ إنْسَانا

لقد جرَّبنا ـ أيها الإخوان ـ أننا لما تجرَّدنا عن الدين ، ولما تنكَّرنا للإسلام ، ولما أفلسنا في الروح الدينية ؛ فقدنا كلَّ شيء ، إننا لم نعد بشيء ، إننا لم نرجع إلا بخفي حُنين ، هذه التجربة تكفينا ، وتغنينا عن كلِّ تجربةٍ جديدةٍ ، فلنعد إلى الإسلام .

لنعد إلى الإسلام بشجاعة ، لنعد إلى الإسلام بصراحةٍ ، وصدقٍ ، إنَّ الصدقَ يُنجي ، والكذبَ يهلك ، إنَّ الصّدقَ هو الذي ينفعُ

---

(١) حين زحف أبرهة بجيشه إلى مكة انفردت ثقيف بموقف التأييد له ، وبعثت معه (أبا رغال) ليدله على الطريق فأصابه ما أصاب أبرهة وجيشه ، فأبغضته العرب ، ورجموا قبره ، انظر « السيرة النبوية » للمؤلف ، ص١٤٤ ، ط . دار ابن كثير بدمشق .

الأفراد ، والأمم ، إنَّ النفاقَ لم يغنِ عن الأقوامِ ، ولا يغني .

إنَّ كلّ محاولة قامت في دور من أدوار التاريخ لصرف هذه الأمة العربية عن منبعها ؛ الذي كانت تستمدُّ منه القوة ، والشرف ، والوحدة أخفقت ، وباءت بالفشل الذريع ، سواء كانت محاولة مسيلمة الكذاب ، أو محاولة المتنبئين في هذه الجزيرة ، أو كانت محاولة القرامطة في ناحية من نواحي هذه الجزيرة نفسها ، أو كانت محاولة الباطنيين ، والفلاسفة ، أو كانت محاولة القوميين في العهد الأخير (بمفهومها العقائدي ، وفلسفتها القائمة بذاتها) .

إنَّ كلَّ محاولة قامت لصرف هذه الأمَّة العربيَّة عن إيمانها ، وعن قائدها ؛ الذي قدَّر اللهُ أن يكون الإمام الخالد ، والنبيَّ الخالد لهذه الأمَّة ؛ الذي هو عنوان شرفها ، ورمز قوتها ، وسرُّ انتصارها ، إنَّ كل محاولة بُذلت لصرف هذه الأمة عن قائدها ، وإمامها ، وعن دينها ، وعقيدتها ، وعن رسالتها ، ودعوتها ، وعن منبعها ، ومرجعها ، فشلت ، وستفشل .

لنقرر : أنَّه لا ملجأ من الله ، ولا منجى إلا إليه ، فإنَّ قصتنا هي قصة أولئك المتخلِّفين ، الذي تخلَّفوا في غزوة تبوك ، وقال الله فيهم :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨] .

ولقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، هذا مما لا شك فيه ! سيروا في الأرض ، وانظروا كيف أصبحنا أذلاء ؟ ! كيف سقطنا من عيون الناس ، وضاقت علينا أنفسنا ؟ ! وهذا ما نشعر به ، وتشهد به قلوبُنا ، وقد رأينا أنْ لا ملجأَ من الله إلا إليه ، فالطريقُ مظلمٌ ، ومسدودٌ ، فلنقرر الحقيقة ، ولنعترف بالواقع ، ولنقل بصراحة ، وشجاعة : **إننا لم نستفد شيئاً من الثورة على الإسلام ، فلنحكم على أنفسنا** ، ولنقل : **لقد أخطأنا** ، **وإننا نرجعُ إلى حظيرة الإسلام ، ونرجع إلى قوَّة الإسلام** ؛ التي لا تزال منتظرة لأن تسعفنا ، وتأخذ بيدنا ، وأن ترفعنا من هذا الحضيض ؛ الذي تردَّينا فيه .

أيها السادة الكرام! إنني أشعر بأنني قد قسوت بعضَ القسوة على إخواني الذين أحبُّهم ، وأجلُّهم ، والذين قد ربط الله مصيري بمصيرهم ، والذين جعل الله شرفهم شرفي ، وهوانهم هواني ، وقد صرختُ بهذه الحقيقة ، وأرسلتُها كلمةً مدويّة في الهند في كل مناسبة .

لقد قلتُ لهم : إنَّ مصيرَ المسلمين في كلِّ بلدٍ مرتبط بمصير العرب ، فإذا عزَّ العرب ؛ عزَّ الإسلام ، والمسلمون ، وإذا ذلَّ العربُ ؛ ذلَّ الإسلام ، والمسلمون ، أولئك الذين لا أعدِلُ بهم قوماً ، ولا أعدِلُ بكتابهم كتاباً ، ولا أعدِلُ بلغتهم لغة ، ولا أعدِلُ بحضارتهم حضارة ، على ذلك أحيا ، وعلى ذلك أموت ، وما حملني

على هذه الصراحة ، أو على هذه المرارة إلا أنني آخذُ بنصيبي مما أنتم فيه .

فإلى الراية المحمدية أيها العرب ! لا إلى الراية القومية ، ولا إلى أيِّ رايةٍ جاهليةٍ ، لقد أنقذكم الله من الجاهلية ، وأنقذ أمماً ، وبلاداً بفضلكم أيها العرب ، فلا تعودوا إلى هذه الجاهلية .

لقد كانت لهذه الأمم جاهليتها ، وحضارتها ، وشعاراتها ، وأنسابٌ تفتخر بها ، وآدابٌ ، وتقاليدُ تعضُّ عليها بالنواجذ ، ولكنكم حملتم إليها رسالةَ الإسلام ، فأنقذتموها من هذا المستنقع ؛ فكيف يجوز لكم أن تعودوا إلى جاهليتكم ؟!

وأنتم أيها الإخوة العرب! يا أهل مكة! يا سَدَنة البيت الحرام! بنيتم بيدكم العفيفة النظيفة ، الكريمة الشريفة هذا البيت ؛ ليعلو على البيوت كلها ، وليعلو على الأصنام ؛ ويعلو على الهياكل . كيف يجوزُ لكم أن ترجعوا إلى هذه الهياكل الظالمة ، المظلمة ، الوسخة ، المتعفنة ؟!

ومن هنا ارتفع الصوتُ الذي دوَّى في الآفاق ، وحطَّم الأصنام ، وفكَّ السلاسل ، والأغلال ، وغيَّر مجرى التاريخ ، وقلبَ تيار الحوادث .

من هنا انبثق ذلك النور الذي انتشر في العالم ، وأنقذ الأمم ، وأحيا الرمم ، وأحيا النفوس البشرية ، فكيف يجوز لكم أن تعودوا إلى

هذه الجاهلية البالية التي أصبحت أوروبة تعافها ، وأصبحت الأمم الجاهلية ؛ التي عكفت عليها قروناً ، وأحقاباً تتبرَّأُ منها ؟ !

إذا كانت أوروبة قد رفضت هذه القوميات ، وعرفت معرَّتها ، وعرفت جنايتها على الإنسانية ، كيف يجوز لكن أن تتناولوا هذه اللقمة التي لفظتها أوروبة من فمها ؟ ! كيف يجوزُ لكم أن تتلقَّموها ، أنتم يا كرام الناس ؟ ! يا أولئك الذين كانوا يرفدون القبائل ، ويتصدَّقون على الفقراء !

العالم كله في ضيافتكم ، وعلى مائدتكم ، فحرامٌ عليكم أن تعيشوا على فتات مائدة غيركم ، على العظام البالية النَّخِرة!! .

إنَّ موقفَ كثيرٍ من إخواننا العرب في غيرِ هذه البلاد موقف يُحرجنا ، موقف يُحْرِجُ الدعاة في الهند ، وباكستان ، وبلاد العجم ، موقف يحرجُ أولئك الذين لا يعرفون غيرَ الإسلام ديناً ، ولا غيرَ القرآن كتاباً ، ولا غيرَ الشريعة نظاماً ، وقانوناً ، ولا غير محمد بن عبد الله إماماً ، وقائداً .

عطفاً عطفاً ، رفقاً رفقاً أيها العرب! لا تحرجونا عند مواطنينا ! لا تحرجونا في بلادٍ بعيدةٍ عن مهد الإسلام !

إذا لم تحسنوا إلينا ؛ فبالله لا تسيئوا إلينا ! إذا لم تزيدوا في قوتنا ؛ فبالله لا تنقصوا من قوتنا ؛ من حماسنا ؛ من ثقتنا بالإسلام ؛ من ثقتنا بنفوسنا المؤمنة ، من ثقتنا بتاريخنا الإسلامي ؛ من ثقتنا بأنكم

أصحابُ الفضل في إسلام هذه الأمم ؛ التي كانت تتسكَّع في الجهالات ، وكانت ترسفُ في القيود والأغلال ، وكانت تتورَّط في الأوحال ، والمستنقعات .

رفقاً أيها العرب! رفقاً يا قادة مصر! رفقاً يا قادة سورية! ارحموا المسلمين ؛ أولئك الذين يكافحون الشعارات الجاهلية ؛ ويهتفون بالإسلام ، ويهتفون بالقرآن .

إنَّ موقفهم دقيق ؛ أنتم الذين أنشأتم هذه الأجيال المؤمنة ، وكانت في جاهليتها تعبد البقر ، وتعبد الشجر ، والحجر ، ولا تزال منها بقية في آسية ، وإفريقية . إنها تنظر إليكم كفقير بائس ، وكجائع عطشان ، وتقول لكم بلسان الحال :

﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٥٠] ، أفيضوا علينا من مائدة محمد بن عبد الله ﷺ ، لا تكونوا أقل اعتزازاً به ، وافتخاراً من الأعاجم ، أنتم أولى به من أولئك الذين لم يتَّصلوا به بنسب ، ولم يتصَّلوا به بلغةٍ ، ولم يتّصلوا به بوطن ، ولم يتَّصلوا به بدم .

ترون الرجل في الهند إذا ذكر اسم محمد ﷺ ترنَّحت أعطافه ، واهتزَّت مشاعره ، والتهبت جذوتُه ، وتفتَّحت قريحته ، فأصبحَ ليثاً مغواراً .

هؤلاء الأتراك لا يزالُ لهذا الاسم سِحْرٌ في نفوسهم ؛ ليس لكلمة

أخرى من أسماء السادة ، والقادة .

قولوا : محمداً ، وسلوا ما شئتم ، استخدموهم كالعبيد ، استخدمونا نحن الهنود باسم الإسلام .

انظروا كيف يأتي الناس يسعون على رؤوسهم ، وعلى عيونهم إلى هذا البيتِ من كلِّ فجٍّ عميق ، ولا تزال تلك القوة الكبرى التي لم يعرف العالم في تاريخه الطويل قوةً أكبر منها .

فوالله إنَّ أوروبة ترتعد فَرَقاً من هذه القوة ! وإنَّها نامت النومة العميقة الحلوة بعد هذه النكبة .

إنني أرجوكم أن تسامحوني إذا قسوت بعضَ الشيء ، فما دفعني إلى ذلك إلا الإخلاص ، إن مَثَلي ومثلكم كما قال رسول الله ﷺ : « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[1] .

فوالله لولا هذه الرابطة الحبيبة ؛ الرابطة التي أكرمنا الله بها ؛ لكان لنا تاريخٌ غيرَ هذا التاريخ ، ولكان لنا وضعٌ غيرَ هذا الوضع !

الإسلامُ هو الذي يربطنا بكم ، ويربطكم بنا ، هذا الإسلام الذي نريد أن نلتقي عليه ، وأن تتولوا قيادته من جديد .

* * *

(١) قال ذلك للأنصار في بيعة العقبة الثانية حين استوثقوا منه ألا يدعهم ، ويرجع إلى قومه ؛ إذا أظهره الله تعالىٰ . انظر « السيرة النبوية » للمؤلف ، ص١٥٩ . ط . دار ابن كثير .

المحاضرة الخامسة

تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا

سادتي وإخواني[١] :

إنني أذكر لكم حادثاً من حوادث التاريخ ، الذي هو الفصل الحاسم الذي افتُتح به تاريخ الدعوة الإسلامية ، بل افتُتح به تاريخ جديد للإنسانية ، وهو الساعةُ الدقيقةُ التي وقف فيها رسول الله ﷺ على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه ! » .

وكانت هذه الكلمة معروفةً عند العرب : إذا كانت هنالك غارة سرية ، أو غارة من جيش كامن بالمرصاد ، وانتبه لها أحدُ أبناء البلد ، فإنه يرتقي جبلًا من الجبال ، أو هضبة من الهضاب ، وينادي بأعلى صوته : يا صباحاه ! فيفهم الناس : أنَّ هنالك خطراً على المجتمع ، خطراً على البلد ، فيُهرعون إليه ، ويتركون ما هم فيه من أشغال ،

(١) أُلقي هذا الحديث في بلد عربي كبير في ٢٤ شعبان سنة ١٣٨٨هـ الموافق لـ ١٧ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٨م ، وقد نقل من الشريط ، وتناوله صاحبُ الحديث بكثيرٍ من التنقيح ، والتهذيب ، وحذفَ المكرَّرات ، والمترادفات ، وصحَّح بعض الأخطاء التاريخية التي وقعت في الكلمة المرتجلة .

ومن تجارات ، ومن صناعات ، ويقبلون إلى هذا الداعي ؛ ليستفسروه عن هذا الخطر الكامن .

فلما ارتقى رسولُ الله ﷺ جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه ! » وكان هذا الصوتُ الحنونُ أليفاً ، وكان مصدرَ أكبرِ ثقةٍ يتمتعُ بها إنسان .

لم يكن صوتاً عادياً يصدر عن شفتي رجل عادي ، إنَّما هو صادر عن شفتي رسول الله ﷺ الذي لقَّبوه قبلَ النبوة بالصادق الأمين .

فلما سمعوا هذا الصادق الأمين يرفع هذا الصوت ، وكان عهدهم بهذا الصوت : أنه لا يكونُ فيه مبالغة ، أو مجازفةٌ ، وأنه لا يكون فيه مجرد إعلان ، وإزعاج ، وإنذار . عرفوا : أن هنالك خطراً كبيراً ، فخفَّ الناس إليه سراعاً ، واجتمع أهل الوادي في سفح الجبل ، ورفعوا رؤوسهم ، وفتحوا عيونهم ، وشخَصوا بأبصارهم إلى رسول الله ﷺ ، إلى محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي ، ماذا سيقول لهم ؟

فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم : أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريدُ أن تُغيرَ عليكم ، أصدقتموني ؟ ! » .

وكان العرب على أُميتهم ـ وبالأصح على جهلهم بصناعة العلم ـ قد رزقهم الله الذوق السليم ، والنظرَ الصائب ، فاستعرضوا الجو ، استعرضوا الواقع ؛ الذي كانوا فيه ، فرأوا أنَّ رجلاً قد ارتقى الجبل ،

ويرى ما وراء الجبل ، وأمام الجبل ، فله الحقُّ كلَّ الحقِّ في أن يخبرَ بأي شيء لا يراه الذين وقفوا في سفح الجبل ، ولا يتجاوز بصرُهم وراء الجبل .

إنَّما كانوا يحتاجون إلى عقل سليم ، فهذا العقل السَّليم هداهم ، وقد أرشدهم إلى أنَّ إنذارَ هذا الرجل ؛ الذي قام على قمة الجبل في محله ، وله الحق في أن يخبرهم بشيء لا يرونه بالأبصار ، فصدَّقوه ، وقال : ما جربنا عليك كذباً ، وما وجدناك إلا صادقاً أميناً .

فلما قالوا ذلك ؛ قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »[١] .

ماذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لهم ؟ قال لهم : إن هذه الحياة التي تعيشونها يا أهل الوادي هي أكبر خطرٍ ، وجنايةٍ عليكم ، هي عدو كامن يجب أن تحسبوا له ألف حساب .

إنني إذا أخبرتُكم : أنَّ وراء الجبل كتيبةٌ تريدُ أن تنتهز أول فرصة للهجوم ، وتغير عليكم على حين غرة ؛ فأنتم تحسبون لها ألف حساب ، وأنتم تسرعون إلى بيوتكم ؛ لتحملوا السلاح ، وتأخذوا أهبتكم ، وتستعدوا لمقاومتها .

ولكن ما لي إذا قلتُ لكم : إنَّ هذه الحياة ؛ التي تعيشونها ، وإنَّ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٧١) ؛ ومسلم برقم (٢٠٨) ؛ انظر السيرة النبوية للمؤلف ، ص١٢١ ، ط . دار ابن كثير .

هذه العقائدَ ؛ التي تدينون بها ، وإنَّ هذا منهجَ الحياة ؛ الذي آثرتموه ، وإنَّ هذا الطراز من المدنيَّة ، وهذا الطراز من الأخلاق ، إنَّ هذه المثل العليا ؛ التي آمنتم بها ، وإنَّ هذه الأصنام ؛ التي خضعتم لها ، وعكفتم عليها عبادةً ، وتسبيحاً ، وتعظيماً ، وتقديساً ، إنَّ هذه الحياة هي أكبرُ خطر عليكم ، هي أكبرُ تحدٍّ لما أنتم فيه من لهو ، ولعب ، ومن جهل ، وسفاهة من هذا الجيش الكامن ؛ لأنَّ هذه الحياة هي مصدر كل خطر .

إنَّ قريشاً بعقولهم القاصرة ، وبتجاربهم المحدودة ، وبعقلهم الضيق كانوا لا يصدِّقون بوجودِ خطرٍ إلا في جيش مغير ؛ إلا في جيش واقف بالمرصاد ؛ إلا في غارات قبلية قد جرَّبوها .

وكان علمهم محدوداً في هذا النطاق ، فنبّههم رسولُ الله ﷺ إلى أنَّ نفس الحياة التي يعيشونها هي الخطر الحقيقي ، وهي مصدر كلِّ بلاء ، ومصدر كلّ شقاء ، ومصدر كلِّ قلق ، ومصدر كلِّ إخفاق .

هي المصدر الواسع الذي كان بقاؤه وحده كافياً ليكونوا على حذر ، وليكونوا على يقين وإيمان بالخطر .

هذا هو الوتر الحساس الذي ضرب عليه رسول الله ﷺ ، فما دام هذا الخطر فيهم ؛ فلا حاجة إلى خطر خارجي .

ولم تزل هذه نقطةَ ضعفٍ في الفطرة البشرية ، إنَّها تؤمنُ بالأخطار من الخارج دائماً ، إنَّها تؤمنُ بالأعداء الأجانب ، إنها تحسب لهم كلَّ

حساب ، ولكنَّها تغفل عن مصادر الخطر العميقة الأصيلة ، الكامنة الدفينة في نفوس الشعب ، وفي قلوب الشعب ، وفي الحياة الاجتماعية ، والأخلاق العامة .

فنبَّههم رسول الله ﷺ ، وقال لهم بلغة بليغة كان يفهمها عقلاء قريش ، وفضلاؤهم ـ وكانوا أهل اللغة ـ :

يجبُ عليكم أن تنتبهوا لهذا الخطر الداهم ، لهذا الخطر الدائم ، لهذا الخطر الكامن الدفين في نفوسكم ، لهذا الخطر الذي لا يُرى بالأبصار . فأنتم في خطر ، وعلى شفا جُرُفٍ هارٍ مادمتم في جاهليتكم ، ووثنيتكم ، وما دمتم تؤثرون المصلحةَ الفردية على المصلحة الاجتماعية ، وتؤثرون العاجلة على الآجلة ، وتؤثرون القويَّ على الضعيف ، وتنتصرون له .

وما دمتم تعبدون المادة ، وما دمتم تعبدون القوة ، وما دمتم تقدِّسون الأصنام ؛ التي تنحتونها بأيديكم سواء كانت من الحجارة ، أو كانت من صنع الرجال ، أو كانت من تفكير العقول ، أو كانت من وحي الدراسة ، أو كانت من وحي الأطياف ، أو الخيالات .

ما دام لكم هذا الوضع ، فإنَّه مصدر كلِّ خطر ، وإنَّ مثلكم كمثل ركَّاب سفينة يركبونها ، وفي هذه السفينة ثقبٌ واسع يدخلُ منه الماء بقوة ، وسرعة ، ولكنهم لا يعنون بهذا الثقب ، وقد قرؤوا في حكايات (سندباد البحري) وفي رحلات (جلفر) عن قرصان البحر ،

الذين حدَّث عنهم الرَّحالون في الشرق ، والغرب ، فهؤلاء يحسبون لهم كلَّ حساب ، ولكنَّهم لا يعتنون بهذا الثقب الواسع في جوف السفينة الذي يفور منه الماء ، ويدخل منه بقوة ، وسرعة .

هذا مثالٌ لمجتمعنا الحاضر أيها الإخوان! لم يكن هذا المثل الحكيم الذي ضربه رسول الله ﷺ ، واتخذ له طريقةً حكيمةً لم يُسبق إليها ، لم يكن مثلاً محدوداً خاصاً بالمجتمع القرشي ، المجتمع المكي القاصر المحدود الذي نقرأ عنه في التاريخ ، إنَّما هو مثلٌ حكيم في كلِّ عصرٍ ، ومثلٌ منطبق علينا كلَّ الانطباق ، ومثلٌ دافقٌ بالحياة ، إنه تصوير دقيق لمجتمعنا .

إننا نخاف الأوباء ، ونخاف الأمراض ، ونخاف (المكروب) ونحسب له حساباً دقيقاً ، ونبعد ، ونؤمن بالخيال ؛ حتى إذا قال أحد : إنَّ هنالك حادث موت بـ (الكوليرا) فإنَّ كلَّ البلد ينتشر فيه الذعر ، ويستولي عليه الخوف ، ويعتقد كلُّ واحد : أنَّه أول فريسة لهذا الوباء ، ولكنَّ هذه الأمراض الخُلُقية ، هذه الأخلاق التي يبغضها الله ، ورسوله ﷺ : عبادة المادة ، وعبادة الشهوات ، وعبادة القوة أينما كانت ، والانحراف مع الهوى ، والانسياق مع الرغبات ، والانغماس في الهوى ، والملذَّات ، والنَّهم بالغناء ، والطرب ، ووسائل التسلية والترفيه ، والطاعة العمياء المطلقة للقيادات ، والشعارات ، والزعامات ، والهتافات ، والتعامي عن الحقائق ، وعدم الاعتبار بالتجارب المتكررة ، والاسترسال في الأحلام ،

والاسترسال في الأماني ، والتقديس للبشر إلى غير نهاية ، واعتقاد العصمة فيهم من الخطأ والضلال ، وتقديس الأبطال ، وتقديس الزعماء ، وتقديس السياسيين ، وغير السياسيين . هذا وضعٌ أكثرُ خطراً ، وأكبر جنايةً ، وأكبرُ تحدياً لوضعنا الحاضر ، ولمجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه من ألف عدوٍّ ، ومن ألف جيشٍ ، وهذا هو المثل الحكيم الذي ضربه رسول الله ﷺ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ونحن نعيش في مثل هذا الوضع .

إننا نتعامى عن الحقائق الراهنة ، ونأبى أن نعتبر بالدروس ، أن نعتبر بالتجارب ، إنه وضع خطر جداً .

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قال : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

وهنا موضع الإعجاز : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، لماذا لم ينتفعوا بهذه التجارب ؟ ! ولماذا لم يتلقوا درساً من تلك الحوادث ، والكوارث ؛ التي دهمتهم ؟ !

لأنَّ الشيطان قد وضع لهم فلسفةً جديدةً ، واخترع لهم أسماء جديدة ، وفتح لهم باباً واسعاً في التأويل ، فضاعت العبرة ، وضاعت الذكرى ، وخدَّروا نفوسَهم ، وعقولهم بأسباب وعلل تكوينية ، وطبيعية ، وبرروا حياتهم الأولى ، ودافعوا عن أخلاقهم ، وعاداتهم ، إنّها معجزةٌ خالدةٌ من المعجزات القرآنية .

وأعاد التاريخ نفسه ، وأعادت الطبيعة البشرية المادية منهجها ، فأُصبنا بالكارثة الكبرى في الخامس من حزيران (١٩٦٧م) وكانت نتيجةً لمنهج طويل آثرناه في حياتنا الاجتماعية ، ولانحراف بعيد عن جادة الدين والفطرة السليمة وكانت نتيجة عوامل كثيرة كانت تشتغل في زمن بعيد .

فوقف قادتنا بين الشعوب العربية ، وبين الاعتبار والانتفاع بهذه النكبة ، فوضعوا لنا فلسفات جديدة ، واخترعوا لنا أسماء جديدة ؛ فقالوا : إنما هي نكسة ، لا نكبة ، وإنما هو انتصار ، لا اندحار ، وإنما هو فتح مبين ، لم يسمع بمثله[١] ، وإنَّ كل ما فوجئنا به نتيجة الرجعية الباقية في الشعوب العربية . وصدق الله العظيم : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

هذه حالة خطرة أيها الإخوان ، إنَّ التجارب الإنسانية ثروةٌ ثمينةٌ يعتزُّ بها الإنسان في كلِّ زمان ، ومكان ، لو أبطلنا هذه التجارب ، ولو أبطلنا حكم العقل ، وحكم الحواس البشرية ، لو أبطلنا حكم الآذان ، والعيون ، وقلنا : نبصر ، وننكر ، ونسمع ، وننكر ، ونتلقّى دروساً ، ثم نرفضها . هذه حالة خطرة جداً ، هذا نذيرٌ من النُّذُر ، معنى ذلك : أنَّا فقدنا الصلاحية .

---

(١) قالوا آنئذٍ : إن إسرائيل لم تكن تريد الأرض إنما كانت تريد أن تسقط الأنظمة التقدمية ، وقد فشلت في هذا ، فهذه هزيمة لها ، وبالتالي هو انتصار لهم .

إنَّ الأمةَ العربيةَ تجتازُ الآن مرحلةً دقيقةً حاسمة في تاريخها ، وهي مرحلة لا أقول : مرحلة هزيمة ، ولا أقول : مرحلة نكبة ، إنني لا أخاف عليكم هذه النكبة ، فالأمم ذاتُ الدعوةِ ، الأممُ ذاتُ الرسالة ، الأمم ذات التاريخ ، الأمم ذات الضمير الحي ، ذات القلوب النيِّرة ، ذات القلوب الحية ، ذات القلوب الدافقة بالحياة تمرُّ بهذه المراحل ، وأنتم مررتم بمراحل كثيرة .

زحف إلينا الزحف الصليبيُّ ، زحفَ إلينا الزحفُ التتري ؛ الذي كاد يأتي على آخر رمق للمسلمين ، ولكن لم يكن هنالك موضعُ يأسٍ ، وتشاؤمٍ ؛ لأنَّ ضميرَ المسلم كان حياً ، ولأنَّ عقلَ المؤمن كان واعياً ؛ لأنه كان عنده تمييز بين الخير ، والشر ، كان يميز بين عدو ، وصديق ، وبين نافع ، وضار ، وكان المسلم جريئاً ، كان صريحاً ، وكان شجاعاً .

إنني لا أخافُ عليكم مثل هذه النكبات ، ولكنِّي أخافُ عليكم هذا الضمير الذي قد توقَّفَ عمله .

ما عمل الضمير ؟ عملُ الضمير الحساب ، عمل الضمير المناقشة ، ولو كانت غلطة من أبٍ كريمٍ ، أو سيدٍ عظيمٍ .

إذا مات هذا الضمير ، أو توقَّفَ عن العمل ، إذا توقَّف عن الانتفاع ، إذا توقَّفَ عن الاعتراف بالحقائق ؛ هنالك الخطر الأكبر ، هنالك تموت الإنسانية .

يموت إنسان واحد ، ويولد ألفُ إنسان . هذه سنة الله ، هذه الطبيعة البشرية ، ولكن إذا مات الضمير الجماعي ، إذا مات ضمير الأمة ؛ هنالك الموت الرهيب ، هنالك النكبة ؛ التي لا نكبةَ بعدها . وإذا انقطع هذا الحساب ، وإذا أصبحَ مكان أخطأت : أصبتَ ، ومكان أسأتَ : أحسنتَ .

إنكم تعرفون : أنَّ كلّ أمةٍ تمرُّ بهذه المراحل ، إنها تنتقل من هزيمة إلى انتصار ، ومن انتصار إلى هزيمة ، ومن هزيمة إلى هزيمة أخرى .

لا ثقة بأمة ، ولا بصلاحيتها للحياة ؛ إلا إذا مرَّت بهذه المراحل كلها ، لذلك قدَّر الله تبارك وتعالىٰ للرسول ﷺ ولأصحابه بعض الانتكاسات ، فقال : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

إنّها تربيةٌ ربانيةٌ لأفضلِ الأمم ، والشعوب ، ولكنَّ المعوَّل على العقائد ، والرسالات ، المعوَّل على القلوب ، المعوَّل على الضمائر ، ليس المعوَّل على هذه الأجسام .

إذا كان شعبٌ لا يستطيعُ أن يقول لقائده : أخطأتَ ، هذا شعب يستعبده كلُّ طاغية ، ويسخِّره كلُّ جاهلٍ سفيهٍ . هذا الشعب فريسةٌ لكلِّ طغيان ، فريسة لكل استعمار .

لماذا كان الاستعمار بغيضاً أيها السادة ؟ !

لأنه استعمر قلوبنا ، واستعمر نفوسنا ، واستعمر أرواحنا ، واستعمر عقولنا .

فهل الاستعمار بغيض إذا جاء من أجنبي ، وهل الاستعمار حبيب إذا جاء من وطني ؟!

لقد أعطاكم الله الميزان ؛ لتقيموا القسطَ في الناس ؛ لتكونوا شهداء على الناس :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

أمر اللهُ تعالىٰ مع الأعداء ، والإخوان ، والآباء ، فأنتم إذا فقدتم الميزان ، إذا كان شيءٌ ينسَبُ إلى أجنبي ؛ فهو بغيض ، فهو قبيحٌ ، أما إذا كان ممن يتَّصل بنا بالنسب ، من يتّصل بنا بالقوميَّة ، ثم يتسلَّط علينا هذا التسلّطَ الراعن ؛ فنحن نخضعُ له كلَّ الخضوع ، ونعطِّل له العقول ، والضمائر ، هذا والله هو الخطر الحقيقي !

إنَّ هذه الأمة قد رُبِطَ بها مصير الأمم ، فكيف تكون هذه الأمة شهيدة على الأمم جميعاً ؟ وكيف تكون رقيبة على الأمم جميعاً ؟ وكيف تكون محاسبة للأمم جميعاً إذا لم تنصف قادتها ، ولم تنصف زعماءها ، ولا تميز بين الحق ، والباطل ، لا تميز بين الناصح والغاش ، وإنما تستسلم هذا الاستسلام الفظيع ، وتذعن هذا الإذعان

الشائن ، وتستكين هذه الاستكانة الذليلة ، وتفقد هذا الضمير ؛ الذي منح الدنيا هذه المدنية المشرقة ، منح الدنيا هذه العلوم المزدهرة ، منح الدنيا هذا التاريخ المجيد حين كانت الدنيا على وشك الانهيار :

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

هذا الضميرُ يتوقَّف عن العمل ، هذا والله خطرٌ ! ليس خطراً على العرب وحدهم ، وليس خطراً على المسلمين وحدهم ، بل هو خطر على الإنسانية كلها .

فإنه موضعُ أمانةِ اللهِ ، وقد أودع سرَّه في هذا الضمير المسلم ، وجعل كلَّ مسلم وصيّاً على العالم ، وميزانَ عدلٍ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ميزاناً يحكم بدقة ، ويحكم بأمانة ، ويحكم بصراحة ، لا يفضِّل إنساناً على إنسان ، ولا يفضِّل فرداً على فرد ، إنَّه حكمٌ دقيق عادل ، فإذا فقد هذا الميزان عمله ، إذا فقد الملحُ ملوحته ؛ فمن أين يملَّح الطعام[١] ؟

يا إخوتي! ليست المصيبةُ : أنَّ الطعامَ غيرُ مالحٍ ، المصيبةُ أنَّ الملحَ فقد ملوحته[٢] . إنَّ المصيبة : أن الميزان قد توقف عن العمل ،

---

(١) انظر « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للمؤلف .

(٢) كما قال الشاعر :

يـا معشـرَ القُـرَّاءِ يـا مِلْـحَ البَلَـدْ ... مـا يُصْلِـحُ الملـحَ إذا الملـحُ فَسَـدْ

وما عاد محايداً ، إنه قد أصبح صديقاً لبعضٍ ، وعدواً لبعض .

إنني لا أخافُ النكبات ، إنَّ الجمرة الإيمانية لا تزالُ كامنةً في نفوس المسلمين ، وفي نفوس العرب ، وأنا أؤمن كلَّ الإيمان ، بأن هذه الجمرة مستعدة للالتهاب ؛ إذا وجدت من يلهبها ، وينفض عنها الغبار ، غبار المدينة الزائفة ، غبار الاسترسال في الأحلام ، والأوهام ، غبار حب الذات ، غبار كراهية الموت ، غبار الإشفاق من الخطر .

إذا امتدت يد كريمة أمينة مؤمنة بالله ، ورسوله ﷺ ، ونفضت الغبار عن هذه الجمرة الإيمانية ؛ فإنَّ هذه الجمرة مستعدّةٌ للالتهاب ، والإلهاب ، إنَّها مستعدةٌ للاشتعال ، والإشعال ، فإنني لا أخافُ من هذه الجهة ، ولكنِّي أخافُ من عدم تلقِّي الدروس من الحوادث .

إننا نقرأ في تاريخ الزمان : أنَّهم كانوا يؤمنون بالآلهة : إلـٰه الحرب ، إلـٰه البر ، إلـٰه البحر ، ولكنَّهم كانوا يغضبون في بعض الأحيان على هذه الآلهة الخيالية ، ويثورون عليها إذا خانهم النصر ، ولم تتحقق آمالهم ، وقد حدَّثنا التاريخ : أنَّه لما غرقَ أسطول للإمبراطور أغسطس استشاط غضباً ، وحطَّم تمثال (نيبتون) إله البحر ؛ لأنَّ هذه هي الطبيعة الإنسانية .

أما نحن المسلمين ، فمؤمنون موحدون ، مؤمنون بالله تعالىٰ ، لا يجوز لنا أن نؤمن بقيادةٍ إيماناً كاملًا مطلقاً كإيماننا بالله ، وكإيماننا

بالرسول ﷺ ، يجب علينا أن نحاسب القادة ، والزعماء ، يجب علينا أن نحاسب نفوسنا ، وأن نحاسب أوضاعنا الاجتماعية ، وأوضاعنا الخُلُقية ، وأوضاعنا السياسية ، أما الطاعة العمياء لفرد ، أو جماعة فتقودنا إلى متاهة ؛ لا رجعة منها ، ولا هدىً فيها ، وتدفعنا إلى هُوَّةٍ ؛ لا قرار لها ، وعدم محاسبتها ، أو مرجعيتها في شيء ، فهي الطاعة التي قال الله عنها :

﴿ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٧ ـ ٩٩] .

إنَّ الله تعالىٰ أمرنا بالكفر بالطواغيت التي تتسلَّط على البشر في كلِّ مكان ، وزمان ، وهنالك أنواع من الطواغيت ، ولكنَّ هذه الطواغيت إذا تسلَّطت علينا ؛ فلا يجوزُ لنا كمسلمين أن نقدِّسها ، وأن نعتقد فيها العصمة ، بل طلب الله منا أن نتبرأَ منها ، ونكفر بها ، قال إبراهيم :

﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال رسول الله ﷺ مرَّةً : « انصر أخاكَ ظالماً ، أو مظلوماً » ، فعجب الصحابة ؛ رضي الله عنهم ؛ لأنهم تربوا تربية دقيقة ، إنَّهم عرفوا : أنَّ الرسول ﷺ لا ينطقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى ، ولكنّهم كانوا يستعملون عقولهم فيما يقوله ، ويراجعونه فيما لا

يفهمونه ، فقالوا : ننصره إذا كان مظلوماً ؛ فكيف ننصره إذا كان ظالماً يا رسول الله ؟! ففسَّر لهم رسول الله ﷺ كلمته ، فقال : « تمنعهُ من الظُّلمِ ، فإنَّ ذلك نصرُه »[١] .

وكذلك الصحابة رضي الله عنه كانوا يعرفون : أنَّه « لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالقِ »[٢] ، وإليكم ما يدل على ذلك :

بعث رسولُ الله ﷺ سريَّة ، واستعملَ عليهم رجلًا من الأنصار ، فلمَّا خرجوا ؛ وَجَدَ[٣] عليهم في شيءٍ ، فقال لهم : أليس قد أمركم رسولُ الله ﷺ أن تطيعوني ؟ !

قالوا : بلى !

قال : فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار ، فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمتُ عليكم لتدخُلُنَّها !

قال : فقال لهم شابٌ منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقَوا رسول الله ﷺ ، فإنْ أمركم أن تدخلوها ؛ فادخلوها .

قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « لو

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد ، والحاكم عن عمران ، والحكم بن عمرو الغفاري . انظر (صحيح الجامع) رقم (٧٥٢٠) .
(٣) وَجَد : غضب .

دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنَّما الطاعةُ في المعروف »[١] .

إنني أريد أن أقولَ لكم مرةً ثانيةً : هذه الحياة التي نعيشها في البلاد العربية ، هذه الحياة اللاهية المترفة ، هذه الحياة المتعامية عن الحقائق ، الحياة التي تستند دائماً إلى الملاهي ، وتوافه الأمور ، هذه الحياة التي قد غلبَ فيها الهزل على الجد ، اسمحوا لي أن أقولَ بصراحةٍ : هذه الحياة التي قد غلب فيها الجبن على البطولة ، هذه الحياة التي قد غلب فيها حُبُّ المادة ، إذا قلت لكم : على حب الله ورسوله ﷺ وعلى حبِّ الجهاد في سبيله ، فإنِّي لا أكون مبالغاً مجازفاً في القول . هذه الحياة ؛ التي إذا رآها إنسان من بعيد ، إذا زار إنسانٌ بلداً عربياً ، ورأى هذه المهازل ، ورأى هذه الملاهي ، ورأى هذه الأغاني ؛ ونحن في حالة طوارىء ، على أثر نكبة نكبت بها هذه الأمة ؛ استغرب جداً ، واتَّهم سمعه ، وبصره ، هل الذي يراه حقيقة ، أم خيالًا ؟[٢] !

إننا نعيشُ في حالة الطوارىء ، كان الأحرى بالبلاد العربية ، والعواصم العربية أن تكون كلُّها في حالة الطوارىء ليلًا ، ونهاراً .

---

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن علي ، رضي الله عنه .

(٢) وها هو الحال اليوم كالحال بالأمس حيث يقوم الجيش الإسرائيلي بحرب إبادة للمسلمين في فلسطين . . والعالم العربي من حولهم غارقٌ في الملهيات من مباريات ، وسباقات .

كلُّها جد ، كلُّها لباب ، كلُّها تقشف ، كلُّها حذر ، وإشفاق .

لولا هذه العقيدة الكريمة التي نلتقي عليها ، ولولا أنَّ مصيرنا مرتبط بمصيركم ، وبمقدار ذلكم نذل ، ومبقدار شرفكم نشرف ، ولولا أننا نحاسَب هناك بما يقع هنا ؛ لما كان لي حق في محاسبتكم .

الأمم والشعوب تعيش بالمحاسبة ، لولا هذا الحساب الدقيق ، لولا هذا النقاش المخلص ، لولا هذه الغَيْرة في الشعوب الأوروبية ؛ لضاعت ، وطويت في سجل التاريخ من زمان ، ولكنها عاشت ، ولا تزال تعيش بفضل هذا الحساب ، إنها لا تسمح لأيِّ قائدٍ أن يقدَّسَ دائماً ، أن يمجَّدَ دائماً ، أن يتولَّى الحكم دائماً مهما أخطأ ، وأساء ، وجنى على أمته ، وبلاده .

هكذا كان المسلمون ، وهكذا كان قادتهم وأمراؤهم ، وهكذا كانت جيوشهم وعساكرهم .

وأحكي لكم قصةً من تاريخ الفتح الإسلامي في الهند ، ولمؤسس الحكم الإسلامي في هذا القطر : لما زحف شهاب الدين محمد بن سام الغوري (المتوفى سنة ٦٠٢هـ) على الهند ، قاتله (بتهورا) ملك (أجمير) قتالاً شديداً ، وانهزمت عساكرُ المسلمين هزيمةً منكرةً ، ورجعت إلى (لاهور) واعتصمت بها .

وعاتب السلطانُ الأمراء الغورية ، وأمراءَ خراسان ، الذين لم يثبتوا في المعركة عتاباً شديداً ، وعلَّق في عنق كلِّ واحدٍ منهم عليق شعير ، وقال : أنتم دواب ، ما أنتم أمراء!

وسار إلى (غزنة) ـ عاصمة ملكه ـ يُعِدُّ العدَّة للكرَّة بعد الفرَّة ، وظل لا يهنأُ له طعامٌ ، ولا شرابٌ ، ولا يحلو له نوم ، ولا راحة ، ثم ركب في جيش عظيم ، ولم يستشر في ذلك أحداً ، ولما سأله أحدُ الأمراء عن قصده ، تنفَّس الصُّعَداء ، وقال : إنني لم أنم على فراشي منذ لقيتُ الهزيمة من أمراء الهند ، ثم حَسَرَ قباءه ، وقال : أترى إنني لم أغيِّر ثيابي منذ ذلك اليوم ، وقال : إنني لم أرَ وجه هؤلاء الأمراء الذين خذلوني في الميدان ، وأسلموني إلى العدو .

وقال يخاطب جيشه : « إنَّه يتحتم علينا نحنُ المسلمين أن نغسلَ هذا العار ؛ الذي لحقَ بالإسلام والمسلمين ، وأن ننفضَ عنا غبار الهزيمة ؛ التي لقيناها في العام الماضي » .

فوضعوا أكفَّهم على السيوف ، وأطرقوا رؤوسهم سمعاً ، وطاعةً ، ثم توجه إلى الهند ، وبعث برسالة إلى (بتهورا) يدعوه إلى الإسلام ، والطاعة . وأخذته العزة بالإثم ، فرفضه في كبر ، وغضبٍ ، وحمل السلطان عليه حملة شديدة ، وانتصر انتصاراً باهراً ، وتأسست الحكومة الإسلامية في الهند ، التي دامت ـ في أشكال مختلفة ـ أكثر من سبعة قرون ، وكان ذلك في سنة ٥٨٨هـ ـ ١١٩٣م[١] .

---

(١) مقتبس من كتاب (تاريخ هندوستان : ١/ ٣٥٧) للمؤرخ الهندي ذكاء الله الدهلوي . ومن كتاب (نزهة الخواطر) للمرحوم السيد عبد الحي الحسني : ١/ ١٦٢ـ١٦٦ .

إذا كانت عجوزٌ تستطيعُ أن تحاسبَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١]، فلماذا لا يجوز لأيِّ مسلم، ولأيِّ كاتبٍ، ومؤرخٍ، ولأي متألّم بهذه الأوضاع أن يحاسبَ القادة، والزعماء ؟

وكان كلُّ مسلمٍ يستطيع أن يحاسب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال مرةً وهو على منبر الرسول ﷺ: اسمعوا، وأطيعوا.

فقال أحد الصحابة: «لا نسمع، ولا نطيع».

قال: لماذا ؟

فقال: لأنَّ عليك بردتين من الغنيمة، وعلى كلٍّ واحد منا بردة،

(١) قال الحافظ أبو يعلى: ركب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم في صداق النساء ؟ وقد كان رسولُ الله ﷺ وأصحابه، والصَّدُقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. لو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله، وكرامة؛ لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفنَّ رجلاً زاد في صداق امرأة على أربعمئة درهم !

قال ثم نزل. فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين ! نهيتَ الناس أن يزيدوا في مهرِ النساء على أربعمئة درهم ؟.

قال: نعم.

فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال: وأيُّ ذلك ؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠].

قال: فقال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر!.

فلماذا هذا الفرق بيننا ، وبينك ؟!

فقال : هل هنا عبد الله بن عمر ؟

فقام عبد الله ، وقال : إنَّه ـ أي عمر ـ كانت له بردة واحدة ، فأعطيتُه بردتي[1] .

فقال الأول : إذاً نسمع ، ونطيع .

وهكذا عاشت هذه الأمة ، وقاومت جميع النكبات ، والكوارث ؛ التي مرّت في تاريخها ؛ لأنها كانت أمة واعية ، تقول الحق ، وتحكم بالعدل ، وتحاسب ، وتناقش ، وهكذا تستطيع هذه الأمة أن تعيش في المستقبل .

أيها الإخوان! إنني أشكركم من أعماق نفسي ، وأطلب منكم عدم المؤاخذة إذا صدرت مني كلمة أساءت إلى أحد من الإخوان ، أو جرحت شعوره ، فواللهِ لم يكن الدافعُ إليها ، والحاملُ عليها إلا الإخلاصَ وبذل النصيحة ، والشعورَ بالمسؤولية المشتركة ، وأنا معكم كما قال الشاعر العربي :

وَهَلْ أنا إلا مِنْ غُزَيَّةَ إن غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أرشدِ

* * *

(١) لأن عمر رضي الله عنه كان طويلاً جسيماً لا تكفيه بردة واحدة .

المحاضرة السَّادسة

نظامان إلـٰهيَّانِ للغلبة والانتصار

الحمدُ لله ، والصلاة ، والسلام على رسول الله .

أما بعد[(١)] : فيا سادتي ، وإخواني! إنَّ موضوعي اليوم : (الطريق إلى النصر) موضوعٌ مطروقٌ متداولٌ . ولو طرح على أيِّ واحد من عامة المسلمين ، ومن أهل البلد ، فضلًا عن المثقفين ، فضلًا عن قادة الفكر ، وفضلًا عن حَمَلة الأقلام ، والمؤلفين ؛ لكان له جولةٌ ،

---

(١) كلمة ألقيت في ١٦ من شعبان سنة ١٣٨٨هـ في قاعة المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة بعنوان : (الطريق إلى النصر) وكان حفلًا تاريخياً مشهوداً ، لم يُرَ مثله في البلاد المقدَّسة منذ أمد بعيد ، وقد حضره العلماء ، والأساتذة ، وشباب المدارس ، والكليات ، والجامعة الإسلامية ، والمثقفون في عدد كبير ، وكان الحفل تغشاه سحابة من سكون ، وهدوء شامل ، وتأثر عميق ، وقد سجلت هذه الكلمة المرتجلة ، وهذا نصها منقولًا من الشريط ، بعد ما تناولها صاحب الحديث بشيءٍ من التنقيح ، والتهذيب ، وحذفِ بعض ما تكرر من العبارات ، والمعاني التي اقتضاها الجو الخطابي ، والحماس ، والاندفاع اللذان كانا يملكان الخطيب .

وصولةٌ في هذا الموضوع . ولكنَّه إذا بُحث ، ونوقش في مثل هذا المجلس الموقَّر ؛ الذي يضم هذه المجموعات الطيبة المثقفة ؛ كانت له روعةٌ ، وقد يثير جوانبَ من التفكير .

إنَّ مثلي أيها الإخوة في اختيار هذا الموضوع ، وعرضه على مسامعكم ، ولفت النظر إليه كمثل الحكاية التي حكاها عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - في نفس هذه المدينة الطيبة ، ورواها البخاريُّ وغيرُه من ثقات المحدِّثين ، وعقد عليها الإمام البخاري باباً ، فقال : « باب طرحِ الإمامِ المسألةَ على الناسِ ليختبرَ ما عندهم من العلم » .

يقول عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ مخاطباً الحاضرين من أصحابه رضي الله عنهم : « إنَّ مِنَ الشَّجَرِ شجرةً لا يسقطُ ورقُها ، وهي مثل المسلم ، حدثوني ما هي ؟ » .

قال عبد الله بن عمر : فوقع الناسُ في شجرِ البادية ، ووقعَ في نفسي : أنَّها النخلةُ ، فاستحييتُ . فقالوا : يا رسول الله أخبرنا بها ؟

قال رسول الله ﷺ : « هي النخلةُ »[١] .

وكذلك عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال : « خطبنا النبيُّ ﷺ يومَ النحرِ ، فقال : « أتدرونَ أيَّ يومٍ هذا ؟» .

---

(١) رواه البخاري في (صحيحه) في كتاب العلم [رقم (١٣١) (٦١) وتمام الحديث : [قال عبد الله : فحدَّثت أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكونَ قلتَها أحبَّ إليَّ من أن يكونَ لي كذا ، وكذا] .

قلنا : الله ورسوله أعلم ! فسكتَ ؛ حتى ظننا : أنه سيسميه بغيرِ اسمه .

قال : « أليس يوم النحر ؟ » .

قلنا : بلى !

قال : « أي شهر هذا ؟ » .

قلنا : الله ورسوله أعلم ! فسكت ؛ حتى ظننا : أنه سيسميه بغير اسمه .

قال : « أليس ذا الحجة ؟ » .

قلنا : بلى !

قال : « أيُّ بلد هذا ؟ » .

قلنا : الله ورسوله أعلم ! فسكت ؛ حتى ظننا : أنه سيسميه بغير اسمه .

قال : « أليس بالبلد الحرام ؟ » .

قلنا : بلى !

قال : « فإنَّ دماءَكم ، وأعراضكم ، وأموالَكم عليكم حرامٌ ، كحرمةِ يومكم هذا ، في شهرِكم هذا ، في بلدِكم هذا إلى يومِ تلقونَ ربكم . ألا هل بلغت ؟ ! » .

قالوا : نعم .

قال : « اللهمَّ اشهد ! فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ ؛ فَرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع ! ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ »[١] .

* * *

إنني أيها الإخوة لا أحاوِلُ أن أفلسفَ الحديثَ ، ولا أن أتعمق فيه كثيراً ، ولا تنتظروا مني ـ وأنا أسألكم مخلصاً ، وأناشِدُكم بالله ـ خطابةً رائعةً ، فالموضوع أدقُّ ، وأروعُ من أن يكونَ مظاهرةً للخطابة ، أو مناورةً لكلام يملأ الأسماعَ ، ويخلعُ القلوب .

ما هو الطريق إلى النصر ؟

هذا سؤال أريد أن أبحثَ فيه ، وألفتَ نظركم إلى بعض النواحي .

إنَّ هنالك نظامين أيها الإخوة : **نظاماً طبيعياً** خلقه الله تبارك وتعالىٰ ، واختاره لهذا الكون ، واتخذه سنةً له . وهو : أنَّ الكثرةَ تغلِبُ القلة ، وأن الغنى يغلب الفقر ، وأن الأسباب الكثيرة تغلِبُ الأسباب القليلة ، وأنَّ القوةَ تغلب الضعف ، وأن التنظيمَ ، والوحدة ، والانسجام ، والعزم ، وقوة الإرادة ، والصرامة ، والثبات ؛ هذه صفاتٌ ، وأخلاقٌ تغلِبُ دائماً أضدادَها . وكلنا قد جربنا هذا النظام في حياتنا الطبيعية اليومية .

---

(١) رواه البخاري في (صحيحه) [رقم (٤٤٠٦) (٦٧) ، ومسلم رقم (١٦٧٩)] .

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد أودع في الأشياء طبائعها ، وهي لا تفارقها على مرِّ القرون ، والأعصار . فأودعَ في النارِ طبيعةَ الإحراق ، فالنار تحرِقُ دائماً .

وأودعَ في الماء طبيعته ، وأودع في الطين طبيعته ، هذه طبائعُ الأشياء ؛ التي لا تفارقها .

وهذا النظام الطبيعي قانونٌ عادلٌ محايد لا يراعي أحداً ، ولا يفضِّل بشراً على بشر ، ولا جماعة على جماعة ، حتى إنَّ هذا القانون لا يميز بين الكافر ، والمؤمن ، وبين التقي ، والفاجر ، وبين الصالح ، والفاسد ، وبين المصلح ، والمفسد ، فالنار تحرِقُ كلَّ ما امتدت إليه ، لا تراعي مصلحة ، ولا تخاف عاقبة .

هذا هو الميزان العادل المحايد الذي يزنُ الأشياءَ وزناً دقيقاً ، ولا يداهن ، ولا يحابي ، ولا يفرق ، ولا يميز .

هذا هو القانون الذي جربه الإنسان في رحلته الطويلة ، وفي تجاربه المتصلة منذ خُلِقَ إلى يوم الناس هذا ، وتاريخ الفتوح الإنسانية والمغامرات البشرية . وتاريخ الانتصارات ، والحكومات زاخرٌ بالشواهد ، والأمثلة ، إنّه تاريخ متصل متكرر ، طويل مستمر ، لا تجدون فيه الاستثناء .

فحكومات تتغلب على حكومات ، وقوى تصرع قوى ، وطاقات تهدم طاقات ، وعدد يغلب عدداً ، هذا كله خاضع للقانون الطبيعي ؛

الذي خلقه الله تعالىٰ ، ولا يحتاج هذا القانون إلى بحث عميق ، أو استعراض دقيق ، ولا إلى تعمُّق ، ولا إلى فلسفة ، والكتب السماوية ، والنبوَّات لم تبحث في هذا الموضوع ، فهو شيء طبيعي ، معلوم مجرَّب ، معقول بمتناول كلٍّ واحد .

هذا القانون هو قانون قاهرٌ نافذ ، قانون حرٌّ مطلق ، قانون الأرض ، لا يقهره شيء ، فإذا تُرك الناس وهذا القانون ؛ تحكَّم فيهم تحكماً مطلقاً ، ولم يعق سيره شيء .

* * *

ولكنَّ هنالك **نظاماً آخر** : هو النظامُ الذي بحثَ عنه الأنبياء ، عليهم الصلاة ، والسلام ، وبحثت عنه الكتب السماوية ، وشرحته وحثَّت عليه ، وهو : أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد خلقَ غاياتٍ أفضلَ ، وأسمى ، وأحقَّ بالاهتمام ، والاحترام من هذه الغايات التافهة ؛ إذا صحَّ أن نسميها تافهة .

فالنار تحرق ، والماء يغرق ، والسم يقتل ، والترياق ينجع ، والطبيب يعالج ، والمرض يرهق ، ويضعِفُ ، والدواء يشفي ، ويريح ، هذه كلُّها غايات محترمة ، غايات معقولة ، غايات يسيرُ عليها هذا الكون .

ولكن هناك غاياتٌ أفضل من هذه الغايات ، وأحقُّ بالاهتمام ، وهي غايةُ هذا الخلق ، وهداية البشرية ، ومعرفة الله تبارك وتعالىٰ ،

وإقامة العدل في العالم ، وإسعاد البشرية ، ومنح الحقوق لأصحابها ، والحياة السعيدة ، الهنيئة ، الفاضلة ، العادلة ، والمجتمع الصالح المثالي التقي الفاضل ؛ الذي تُحْتَرَمُ فيه الإنسانية ، ويُخْشى فيه اللهُ تبارك وتعالىٰ .

الذي تُؤدَّى فيه الحقوق إلى أصحابها ، والأمانات إلى أهلها ، ويجدُ الناسُ فيه طريقاً ميسوراً للوصول إلى الله تبارك ، وتعالىٰ ، ولتنمية قواهم ، ومواهبهم لمعرفة الله تبارك وتعالىٰ ، والوصول إلى الكمال المطلوب ، والوصول إلى الغاية السامية النهائية ؛ التي خُلِقَ هذا الكون لأجلها .

هذه هي الغايات التي أنزل الله الكتب السماوية لها ، وبعث لها الرسل ، صلوات الله ، وسلامه عليهم جميعاً ، وهذه هي الغايات التي يجبُ أن تخضعَ لها تلك الغايات الطبيعية ، وأن تغيِّر لها هذه الغايات طريقها ، وتترك الطريق للغايات السامية ، التي أنزل الله لها كتبة المعجزةِ ، وأرسل لها الرسالات الصادقة المعصومة .

فإذا تصادمت الغايتان : الغاية الطبيعية ، والغاية الشرعية ، الخلقية ، العقلية ، الدينية ، الأساسية الرئيسية . غاية الخلق ، وغاية هذا الكون ، وغاية النوع البشري ؛ رجحت كفة الغاية الأخيرة ، لذلك لما أُلقي إبراهيمُ في النار ، كانت هناك سنة الله التي نفذت في خلقه ، وسارت السير الطبيعي ، وانطلقت من غير تقييد ، فكانت النار تحرق منذ آلاف من السنين ، ما سُجِّلَت تجربةٌ واحدةٌ في التاريخ البشري ـ

فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء : ٦٩ـ٧٠] .

بُعِثَ الأنبياء ـ عليهم الصلاة ، والسلام ـ والنسبة بعيدةٌ بينهم وبين أممهم ؛ التي بعثوا فيها ، كما تعلمون جميعاً ، ولستم في حاجة لاستعراض قصة بعد قصة ، وهذا القرآنُ مملوءٌ بهذه الشواهد والدلائل . فلما أُرسل نوح ؛ قال له قومه : ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] .

وقالوا له : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود : ٢٧] .

ولما بُعِثَ شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال له قومه : ﴿ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود : ٩١] .

وهذا موسى (سيدنا موسى من أولي العزم من الرسل) ماذا يقول القرآن عنه ، كيف كانت النسبةُ بينه وبين الأمة ؛ التي بعث فيها ، وبين فرعون ، وجنوده ، وبين موسى ، وأصحابه ، اقرؤوا قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [الزخرف : ٥١ـ٥٤] .

وتعرفون : أنَّ الرسول ﷺ كان مستضعفاً في قومه ، وكان أتباعه

مستضعفين مهدَّدين ، يقول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وقد أقصاه قومه من مكة إلى هذه المدينة المنورة ؛ التي نجتمع فيها الآن ، ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد قهر القانون الطبيعي لهذه الغاية الفاضلة ؛ التي تتوقف عليها سعادة البشرية ، فلو سمح للأسباب أن تعملَ عملها ، وأن تسيرَ سيرها الطبيعي من غير تقييد ؛ لقُضِيَ على دعوةِ الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، ولابتلعتها هذه الأجواء القاسية ، والبيئات الضارية .

ولكنّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كذلك أودع في الأخلاق ، والصفات طبائعها . وإنه أودع فيها قوى ، وطاقات لا تقلُّ عن طاقات هذه الأشياء الطبيعية . فالصدق له طبيعة ، وله قانون ، والأمانة لها طبيعة ، ولها قانون ، وتقوى الله لها طبيعة ، ولها قانون .

وإنَّ الصفات الفاضلة الكريمة ، وإنَّ الأخلاق العالية النبيلة ، وإنَّ خشية الله ، وإنَّ احترام الإنسانية ، إنَّ العدل ، والمساواة ، إنَّ المساواة والبرَّ ، إنَّ الإحسان ، إنَّ الإنصاف من الناس ، إنَّ الإيثار ، والفداء ، إنَّ إيثار الآخرة على الدنيا ، هذه كلُّها أخلاقٌ ، وسجايا ، وعادات ، وأعمال ، أودع الله فيها من الطاقات ، والقوى الجبارة ، ومن الأسرار ، والروحانية ، ومن قوة التسخير ، وقوة الفوز ، والنصر ما لم يودع ـ وهو القادر العليم ـ في هذه الأشياء الطبيعية التي قد جربنا طاقاتها ، وتأثيرها ، وخواصها ، وطبائعها .

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لما بعثَ الرسلَ ، وأكرمهم بالرسالة ، وأنزل معهم الكتاب ، والميزان ، ودعوا إلى الإيمان بعقائد ، والتخلق بأخلاق ، والاتصاف بصفات ، والتحلي بمحاسن ؛ وعدهم بالنصر على هذه العقائد ، وعلى هذه الأخلاق . وعدهم بالنصر على هذه الدعوة التي يقومون بها ، وقال لهم : إنَّ قوتكم ، وإنَّ سرَّ انتصاركم في هذه الدعوة ، وإنَّ دعوتكم هي جندنا : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٢ـ١٧٣] ، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١][١] ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة : ٢١] .

إنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلاة ، والسلام ـ لم يكونوا فاقدي الرشد ـ أعاذهم الله من ذلك ـ إنَّهم كانوا على أكبر جانب من العقل السليم ، على أكبر جانب من الذكاء ، ومن معرفة طبائع الأشياء ، ومن قوة المقارنة بين الأشياء ، ومن الحكم الصحيح الدقيق على الأشياء ، إنَّهم لم يكونوا مخدوعين ولا مخبولين ، **إنَّهم كانوا يعرفون أنَّهم إذا ضربوا الحديد بالحديد ، والعدد بالعدد ، والقوة بالقوَّة ، والجند بالجند ، إذا تقدموا إلى المعركة معتمدين على قوتهم المادية ، معتمدين على العدد والعُدَد ، والميرة[٢] والمدد ، معتمدين على**

(١) والأشهاد : هم الملائكة ، والرسل ، والمؤمنون .

(٢) الميرة : الطعام .

سواعدهم وإن كانت قوية ، معتمدين على أصحابهم ، وإن كانوا أبطالًا شجعاناً لا شكّ في ذلك ، فإنهم يخسرون المعركة .

إنّهم كانوا يعرفون : أن هناك شقة شاسعة بينهم ، وبين أعدائهم ، هذا مما لا يخفى على ذوي البصر فضلًا عن ذوي البصيرة ـ وهم أهل بصر وبصيرة ـ فاعتمدوا على نصر الله ، تبارك وتعالىٰ .

ألا تذكرون قِصةَ فرعون ، وموسى ، عليه السلام ؟ لما أُمر بأن يسري بقومه ، وأن يجتاز بهم إلى شبه جزيرة سيناء ـ سيناء ؛ التي تُثيرُ في قلوبنا الأحزان ، وتدمع العيون ! سيناء ؛ التي فقدناها ، فقدناها بفقدنا للإيمان ـ لما أُمِرَ موسى بأن يعبر مع قومه البحر الأحمر ، فلمّا وقف على شاطىء البحر ؛ حانت من بني إسرائيل التفاتة ـ والشك دائماً يساور نفوسهم ، والقلق يشغل قلوبهم ، فهم كثيرو التلفت ، شديدو الإشفاق ـ فلمّا نظروا إلى البحر ؛ وهو هائج مائج ، ونظروا إلى العدو من خلفهم ؛ وهو ثائر موتور ؛ قالوا : يا موسى ! ألهذا جئت بنا إلى هنا ؟ ! ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] . وقد صدقوا في ضوء التجربة ، والواقع ، فإنهم إذا خاضوا البحر فراراً من فرعون وجنوده ؛ فإنَّ مصيرَهم معلومٌ محتومٌ ، وكل من اقتحم البحر من غير سفينة يركبها ، أو طوفٍ[١] يأوي إليه ؛ غرق ، وتلف ،

(١) الطوف : قِرَبٌ ينفخ فيها ، ويشدُّ بعضها إلى بعض كهيئة السطح ، يُركب عليها في الماء ، ويُحمل عليها . (القاموس) .

والبحرُ لا يميزُ بين ظالم ، ومظلومٍ ، وحاكم ، ومحكوم .

ولكنَّ موسى كان مأموراً بذلك ، وكان على بينةٍ من أمره ، وكان واثقاً بوعدِ الله ، وكان يعرفُ بنور النبوة : أنَّ الغاية التي بُعِثَ من أجلها ، والرسالة التي أُكرم بها أكرمُ عند الله من غاية البحر التي خُلِقَ لها ، والمهمة التي أنيطت به ، فقال في ثقة ، واعتماد : ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

هل يستطيع إنسان أن يعتمد على الطبيعة المحايدة ، الطبيعة القاسية ، الطبيعة المطلقة ، التي لا تراعي الحق ، والباطل ، ولا تميز بين الفضيلة ، والرذيلة ، ولا تميز بين الظالم ، والمظلوم ؟ هل كان في استطاعة بشر أن يقولَ هذه الكلمة المؤمنة النبوية ؛ التي لا يزال لها رنينٌ في الآذان ذو دويٍّ في التاريخ ؟ ما قالها إنسانٌ قَطُّ قبل موسى . وهكذا كان : ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء : ٦٣ ـ ٦٦] .

عرف الأنبياء ـ عليهم الصلاة ، والسلام ـ : أنَّهم لا يجوز لهم بحكم العقل ، والتجربة ، وبحكم الحواس الظاهرة أن يعتمدوا على عددهم ، وعلى طاقاتهم ، وعلى عُدَدهم ، وعلى تنظيمهم ، وعلى علوِّ نسبهم ، وكانوا في ذؤابة قومهم ، ومن أفضل خلق الله ، ولكن كانوا يعرفون : أنَّ الأنساب لا تنفعُ ، وكانوا يعرفون : أنَّ النسبة بعيدةٌ بعداً لا يتصور بينهم وبين منافسيهم ، وأعدائهم ، فاعتمدوا على الله ،

وعلى الإيمان ، اعتمدوا على الدعوة ، وعلى تلك الأخلاق الفاضلة ؛ التي تجرّدَ عنها أعداؤهم تجرُّداً شائناً فاضحاً ، وتحلَّى بها أنصارهم ، وأصحابهم تحلياً رائعاً معجزاً ، وتقدَّموا إلى المعركة الفاصلة ؛ وهم متوكلون على الله للنصر ، يدعون الله للفتح المبين ، يدعون الله ليحقَّ الحقَّ ، ويبطلَ الباطلَ ولو كره المجرمون .

استحضروا في أذهانكم ـ أيها الإخوة ـ معركة بدر ، وما ساحةُ بدرٍ منكم ببعيدٍ ! وما يومُ بدرٍ في تاريخكم بمجهول ! اذكروا يوم خرج رسول الله ﷺ بهذه القلَّة القليلة من المهاجرين ، والأنصار : ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلًا ، فلما قاموا مصطفين أمام العدو الثائر الموتور ، القوي الشاكي السلاح ؛ الذي قد تملَّكه الغضب ، والحقد ، وهو يفوقهم مراراً عديدة في العدد ، والسلاح ، نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، ونظر إلى أعدائه ، وهو مَنْ هو في سلامة عقله ، وفي حصافةِ فكره ، وفي ألمعيته وفي فراسته ، وفي تجربته! ! رأى : أنَّه إذا تُرك المسلمون لحظِّهم ، وإذا أطلق فيهم قانون الطبيعية ، وسمح لهذا القانون أن يعمل عمله في هذين الجيشين المتنافسين ، وفي هذين المعسكرين المتقابلين ؛ عرف ما هي النتيجة ، إنها لم تكن تحتاجُ إلى ذكاءٍ باهرٍ ، ولا تحتاجُ إلى ألمعية فائقةٍ . إنَّ قريشاً جاءت بحدِّها ، وحديدها ، إنها جاءت وهي ثائرة موتورة ، تعضُّ البنان حسرةً ، وندامةً على تنصُّلِ هؤلاء إلى هذه الناحية البعيدة ، عرف رسول الله ﷺ النتيجة ، عرف : أنَّه إذا أُطلق فيه القانون الطبيعي ، وإذا استطاع هذا

القانون أن يشقَّ طريقه إلى الأمام ؛ فلا أملَ في انتصار المسلمين ، لا أمل حتى في رجوعهم إلى المدينة سالمين .

ماذا فعل رسول الله ﷺ ؟ ـ استحضروا في أذهانكم ـ قام يعبد ربه ، ويدعو . عرف أنَّ النصرَ من الله ، وعرف : أن الذي خلق القانون يستطيع أن يوقف القانون ، والذي وهب يستطيع أن يستردَّ . إنه لما خلق هذه الطاقات لم يفلت منه الزمام ، كما يعتقد كثيرٌ من الجهلاء . بنى له أصحابه عريشاً ، وقام فيه يدعو ربه ، ويمرِّغ جبينه ، ويعفِّرُ وجهه في التراب ، ويعرفُ : أنَّ القضاء ينزل من السماء ، لا ينبعُ من الأرض ، الحكمُ لله ، والقوةُ لله ، والنصرُ بيد الله ، قام يدعو ربه ، ويبتهل ، ويتضرَّع ، حتى رقَّ له قلبُ أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وأشفق عليه ، وقال : حسبك يا رسول الله ! !

إنَّ بدراً معركةٌ فاصلةٌ معلومة في التاريخ ، لا نزال نعيش في ظلها ، ونأكل من رفدها ! إننا كلنا ، وهذه الحكومات والشعوب الإسلامية عيال على بدر ، وبدرٌ عيال على الدعوة ؛ التي دعا بها رسول الله ﷺ والكلمة الخالدة ؛ التي قالها . رأى : أنَّ النسبة بعيدةٌ بين الجيشين في العَدَد ، والعُدَد ، كفَّتان متفاوتتان ، كفةٌ قد ثقلت ؛ حتى التصقت بالأرض ، هذه كفة قريش . وكفةٌ خفَّت ؛ حتى ارتفعت إلى الفضاء ، وهذه كفة المسلمين . ماذا تفعلون أنتم إذا رأيتم كفتين متفاوتتين ، وأردتم أن ترجِّحوا كفة على الأخرى ؟ تضعون

سنجة[١] ثقيلة في الكفة الطائشة ، فترجح هذه الكفة ، وتطيش الكفة الثانية .

وضع رسول الله ﷺ هذه السنجة في كفَّةِ المسلمين ، ما هي السنجة أيها الإخوان ؟ أترككم تسبحون في خيالكم ، أسمحُ لكم أن تفكِّروا في ذلك قليلاً . قال - وجبهته على الأرض - الكلمة التي كانت سبباً - في الحقيقة - لبقاء هذه القلة القليلة من المسلمين ، ولبقاء هذه الأمة ، قال : « اللهمَّ إنْ تهلِكْ هذه العصابةُ من أهل الإسلام لن تعبد في الأرض »[٢] .

وصدَّقه الله تعالىٰ في ذلك ، وانتصرت هذه الجماعة كما تعلمون جميعاً ، وكما يعرف التاريخ ، وكما نرى آثاره الإسلامية حية باقية .

إنَّ هذه الكلمة تعني : أنَّ مصير الدعوة مربوطٌ بهذه الجماعة ، أنَّ مصير سعادة البشرية ، والفلاح الإنساني مرتبطان بهذه الجماعة ، وأنَّه لا بقاءَ للأخلاق الفاضلة ، لا بقاء للعدل ، لا بقاء لاحترام الإنسانية لغيرهم ، فإذا شئت يا رب أن تضيعَ هذه المعاني كلَّها ، وأن تتلفَ هذه الثروة كلَّها ، وأن تحبطَ جهود المصلحين ، والأنبياء المرسلين كلَّها ، ويبقى الإنسان ، ولا تبقى الإنسانية ، يبقى الجسم ، ولا تبقى الروح ؛

---

(١) سنجة الميزان : (بالسين والصاد وبالسين أفصح) ما يوزن به كالرطل .

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٦٣) . انظر « السيرة النبوية » للمؤلف ، ص٢٢١ ط . دار ابن كثير .

فافعل ما شئت .

فلمَّا نصرَ اللهُ المسلمينَ في معركة بدر ، وكان الفتحُ المبين ؛ عرف : أن رسول الله ﷺ كان صادقاً في القول ، وأنَّ قوله : إن مصير الدعوة مرتبط بنواصي هذه الجماعة القليلة كانت كلمة حق ، صدَّقتها الملائكة ، وشهد بها التاريخ ، وصدَّقها الإنسان في كل زمان ، ومكان .

وانتصر المسلمون رغم قلتهم ، وذلَّتهم ، وانهزم العدو رغم قوته ، وكثرته ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

* * *

وأذكِّركم بحادثة ثانية ، ولست من أصحاب القصص ، والحكايات ، ولكنِّي أذكِّركم بهذه القصَّة ؛ لأن فيها رسالة ؛ لأنَّ فيها معنىً جديداً ، يجب أن يكون ماثلاً أمام عيوننا ، وحاضراً في أذهاننا :

لما تقدّم سعدُ بن أبي وقاص لفتح المدائن (لعلكم قرأتم في التاريخ : أن دجلة كانت تزبد ، وكانت في المد ، وكان الفرس قد كسروا الجسور ، والقناطر ، وأبعدوا السفن ، والقوارب) ووقف سعد على شاطىء دجلة وِقفةً قصيرةً ، واستعرضَ الواقع الحاضر . استعرض الوضع الاستراتيجي ـ كما يقول الكتَّاب العصريون ـ وقال

لأصحابه : بماذا تشيرون عليَّ ؟ هل نرجع ، أو نقتحم دجلة ؟

كان المسلمون واثقين بأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد خلقهم لغاية ، وأن الله قد ربط مصير الإنسانية بهم ، وأنَّ الله رؤوف بالإنسانية ، وأنَّ الله لم يخلق الإنسانَ سُدًى ، ولم يخلق العالم عبثاً : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

كان المسلمون واثقين بهذا المعنى ، فعرفوا : أنَّهم هم الذين يمثِّلون الإسلامَ ، وهم الذين يحملونَ القبسَ الإسلاميَّ ومشعلَ الدعوة الإسلامية ، إنَّ هذه الجماعة نواةُ الأمةِ الوحيدة ؛ التي أُخرجتْ للناس ، وبذورها الطيبة ، أما دجلةُ فهو نَهْرٌ يوجَدُ مثله آلاف من الأنهار ، فكيف يسمح لدجلة بأن يغرق هذا الجيش ؛ الذي ليس له غرض مادي ؟ لم يخرج من جزيرة العرب ليبدل عرشاً بعرش ، وحكماً بحكم ، وملكاً بملك ، لينتزعَ السيادةَ من الفرس ، ويقدِّمها إلى العرب ، وليأخذ التاجَ من رأس كسرى ، ويضعه على رأس عمر ، رضي الله عنه .

هذا حرامٌ على المسلمين . خرجوا كما قال قائلهم :

« الله ابتعثنا لنخرجَ من شاء من عبادةِ العبادِ إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

فلما استعرض سعدٌ الوضع الاستراتيجيَّ ؛ عرف : أنَّه لا حيلةَ له إلا الاعتماد على الله ، وأنَّه إذا كان الله سبحانه وتعالىٰ قد قضى بأن

يبقى هذا الجيش يؤدي رسالته ، وينشر دينه ، وأن يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده ، ليُخْرِجَهم من الظلمات إلى النور ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم ؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ سيقهر دجلة على أن تفتح لهم الطريق .

استشار سعدٌ سلمانَ ، فقال : « **إنَّ الإسلام جديد** » . تعجبني هذه الكلمة ، وتُثير في قلبي ، وفي تفكيري مَعانيَ ، وأحاسيسَ عميقة جداً .

يتجلّى في جوابه ذكاء المسلم ، لا أقول : الذكاء العام ، إنَّ ذكاءَ المؤمن قد مُثِّلَ خيرَ تمثيل بهذه الكلمة ، التي نطق بها سلمان ، قال : « إنَّ الإسلامَ جديدٌ ، والله لقد ذُلِّلَتْ لهم البحور ، كما ذُلِّلَ لهم البر ، وليخرجُنَّ منه أفواجاً ، كما دخلوا أفواجاً » .

فقول سلمانَ رضي الله عنه : « إنَّ الإسلامَ جديدٌ » معنى ذلك : أن الله سبحانه وتعالىٰ قادر على أن يظهر الدين كله ، إنَّ الإسلامَ لم يؤد مهمته بعدُ ، أمامه مجال واسع ، أمامه أمم ، وشعوب بكر ، أمامه بلادٌ شاسعة ، أمامه دنيا عريضة ، إنَّ هذا العالم كلَّه ينتظر الدعوةَ التي يحملونها ، ينتظر تلك الأخلاق الفاضلة التي يتحلَّون بها ، ينتظرُ جيشَ الإنقاذ ، فقال : إنَّ عقلي المؤمن لا يصدِّق أنَّا سنغرقُ ، وأنَّ دجلةَ ستَلتهمنا التهاماً . إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يقهرها ، ويأمرها بأن تفتح لنا الطريق ، وهكذا كان .

* * *

إخواني! هذان نظامان إلـٰهيان :

نظامٌ طبيعي ، غلبةُ الكثرةِ على القلة ، غلبةُ القوة على الضعف ، غلبة الوحدة على التشتت ، والفوضى ، غلبة التنظيم على عدم التنظيم ، غلبةُ قوة الإرادة على ضعف الإرادة ، غلبة الاختراع ، والعلم على الجهل ، والكسل .

هذا نظام قديم خلقه الله تبارك وتعالىٰ ، وحكَّمه في مجال واسع من هذه الدنيا العريضة ، ومن هذه الإنسانية الواسعة .

ولكنَّ هناك نظاماً آخر كما قلت لكم هو : **نظام الإيمان ، والعقيدة** ، والصفات ، والأخلاق ، والدعوة ، والرسالة . وهذا هو السلاح الذي قاتل به المسلمون ، فانتصروا به . وهذا هو السلاح الذي خرجوا به من جزيرة العرب ، وثيابهم مرقَّعة ، ونعالهم مخصوفة ، وأجفان سيوفهم بالية ، وخيلهم مقطَّعة الركاب ، الناس يستخفُّون بهم ، ويسخرون منهم ، ويقولون : هؤلاء إنما أخرجهم من جزيرتهم الجوعُ ، والعريُ ، أطعِموهم ، واكسوهم ؛ يرجعوا إلى بلادهم .

هذان نظامان إلـٰهيان ، ولكن إذا تجرّدَ فردٌ ، أو جماعة من هذين النظامين ، وثاروا عليهما ؛ فلا خضوعَ للنظام الطبيعي ، ولا احترام له ، لا جدَّ ، لا عزم ، لا إرادةَ ، لا وحدةَ ، لا انسجامَ ، لا عزيمةَ .

وكذلك لا خضوع للنظام الشرعي ، والخلقي ، فلا عقيدة ولا خلق ، ولا صدق ، ولا إخلاص ، ولا تألم للبشرية ، ولا شفقة على

الضعيف ، ولا عطف على اليتيم ، ولا عدل للجميع . إنما هي شهوات ، ونزعات ، إنما هو فخر بالقومية ، وكبرياء ، إنما هو كلامٌ فارغٌ ، وهدير كهدير الإبل ، فهل يستحقُّ هذا البلد ، أو الجيش النصر ؟ !

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ ، ليس بينه وبين بشر نَسَب ، إنه أنَّب بني إسرائيل على هذا الغرور ، وقال : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨] .

لا يفضَّل إنسان على إنسان ، ولا فرد على فرد ، ولا أمة على أمة بمجرد نسب ، وقومية ، وبمجرد عنصر ، وسلالة ، إنما يفضَّل إنسان على إنسان بالتقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إنما يفضَّل بلالٌ الحبشي على أبي جهل القرشي .

فلما برزنا إلى هذه المعركة ، وليس عندنا هذا النظام الطبيعي ، الذي يقضي باليقظة ، يقضي بالوعي ، يقضي بالوحدة ، يقضي بالانسجام ، يقضي بالاستهانة بزخارف الدنيا ، يقضي بالتقشُّف ، والجلادة ، لا عندنا هذا القانون ، ولا عندنا ذلك النظام المقدس . النظام الذي ضَمِنَ الله له بالنصر ، فقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] ، إذا قال : إن جندنا غالبون ، لكفى ، وإذا قال : إن جندنا لغالبون لكفى ، ولكنّه قال : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ . [الصافات : ١٧٢ـ١٧٣] ، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ . [غافر : ٥١] .

فلما خرجنا إلى الميدان ، واعتمدنا على الكلام الفارغ ، اعتمدنا على الدعايات ، وجاهدنا في غير عدو ، وعكفنا على الملاهي ، والملذَّات ، مثل الأمم التي ضربَ الله بها المثل في القرآن ؛ أيُّ مصير كنا ننتظره أيها الإخوان ؟ بالله قولوا لي ، إذا أعطيتكم القلم ، وكان بيدكم القضاء ، أحلفُ باللهِ في هذه المدينة ، وأعوذُ بالله من أن أكذبَ في أي بقعة من بقاع الأرض ، فكيف أكذبُ في جوارِ رسولِ الله ﷺ ، وفي رحاب مسجده ؟! أن أعطيكم القلم ، وأعطيكم القرطاس ، قولوا : إذا كان هذا هو وضعنا الذي عرفناه جميعاً ، عرفناه عن طريق الإذاعات ، وعرفناه عن طريق الصحف ، استعرضوا فقط الصحف ، والمجلات التي كانت تصدر أيام الحرب ، وقبل النكبة بقليل ، هل هذه الأخلاق ، وهل هذا النمط من الحياة يرضي الله ورسوله ﷺ ، هل أغاني أم كلثوم ترضي الله ورسوله ﷺ ، وتستنزل النصر ؟ وهل هذه السهرات الخليعة التي كان يحياها إخواننا في هذا البلد ، الذي وقعت على أكتافه أكبر مسؤولية للدفاع عن المقدسات الإسلامية!! الإنسان الذي يخشى الله ، ويحكم بالعدل ، ماذا كان يقرر على هذه الكتيبة ؟!

كان واجباً أن يعيش المسلمون جميعاً في حالة طوارىء ، في حالة استعداد دائم ، يحرِّمون على أنفسهم حتى الملذّات التي أباحها الله تبارك وتعالىٰ ، وقد فعل ذلك الجيش الموفق المنتصر دائماً في التاريخ .

لما زحف بابر[(١)] ـ مؤسس الدولة المغولية التي عاشت في الهند مدة ثلاثة قرون ونصف ـ نزل إلى الميدان ومعه عشرون ألفاً من المقاتلين ، وقد قاد عدوُّه (رانا سانجا) جيشاً كثيفاً فيه مئتا ألف مقاتل[(٢)] .

هل تعرفون ماذا فعل ؟ كان مغرماً بالخمر لا يكادُ يصبر عنها (معروف عنه في التاريخ : أنه كان مدمناً للخمر) وقفَ في ساحة القتال ، وتابَ إلى الله ، وقال : « يا ربِّ إني أحرِّم على نفسي الخمر فلا أقربها » ، وأقلع عن المحرمات ، والمنكرات ! ثم خاض الحرب ، وقاتل العدو ، فانتصر انتصاراً باهراً ، واستطاع أن يؤسِّسَ

---

(١) هو ظهير الدين محمد بابر التيموري (٨٨٨هـ ـ ٩٣٩هـ) .

(٢) يقول المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجابوري المعروف (بفرشته) في تاريخه : إن (رانا سانجا) توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه ، وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهَّن منجم البلاط محمد شريف ، بأن الهزيمة محتومة ، ولكنَّ بابر صمم على القتال ، وقال : إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ، ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم (رانا سانجا) بعشرين ألف مقاتل ، وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ . (تاريخ فرشته) .

هذه الدولة العظيمة ؛ التي لا تزال آثارُها المعمارية ، والاجتماعية زاهرةً خالدةً ، وقامت الحكومة الإسلامية ؛ التي بقيت إلى عهد قريب .

هكذا كانت الجيوش الجادَّة ، هكذا كان الجادُّون .

أما الهازلون ، فحكايتهم معروفة ، وأنتم أعرف بها مني ، ودائماً ينهزِمُ المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد .

هل هذه مسرحية من مسرحيات ألف ليلة وليلة ؟ تقوم فرقة تمثيل فتمثل حكاية ، فهذا ملك ، وذاك وزير ، وهذا قائد ، وذاك جندي ، هزل ومرح ، فإذا جاء الجيش الحقيقي الذي يحمل السلاح ، الذي قد قرر الموت ، وجازفَ بالحياة ؛ فرَّ الجيش الهازل ، وتقوَّضت المسرحية .

المسرحيات لها مجال خاص ، لها مجال الهدوء ، والأمن ، مجال التسلية ، واللهو .

لماذا لا نستحق هذه النكبة ؟ والله إذا آمنا بأنَّ الله من صفاته العدل ـ وقد آمنا بذلك ، وآمنتم جميعاً ـ فإنَّا كنا نستحقّ هذا! وإذا كان غير هذا ، فإن هذا يثير الدهشة ، والاستغراب في نفوسنا ، أينصرُ الله سبحانه وتعالىٰ المسلمين الهازلين اللاعبين ، أعداء إخوانهم ، وإخوان أعدائهم ؟! قال الله تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ونحن رحماء بالأعداء ، أشدَّاء بيننا .

وهذا اليمن المنكوب الشقي ، ما ذنبه ؟ لماذا كان مظهراً لهذه البطولة ، والغرام بالحرب ، ولماذا لم توجَّه هذه البطولة إلى العدو الحقيقي ؟!

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نَعامةٌ . . .!!

كيف إذا سأل الله تعالىٰ عن هذه الأمة المنكوبة ، فقال : ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ؟ يقول القرآن : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨-٩] ، موءودة واحدة قد وئدت في الجاهلية الأولى لا يتركها الله تبارك وتعالىٰ من غير عدل ، ورحمة ، يسألها أمام الناس جميعاً ، ويقول : ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ؟ فهل لا تسأل أمةٌ بأسرها عن ذنبها ؟! ألا يسألُ اليمنُ الذي قال رسول الله ﷺ عنه : « أتاكم أهلُ اليمن ، أرقُّ أفئدةً ، وألينُ قلوباً . الإيمانُ يمانٍ ، والفقهُ يمانٍ ، والحكمةُ يمانيةٍ »(١) ، ما ذنب هذا الشعب الوادع ؟ بماذا استحق هذا المصير ؟

إخواني! لم يكن من حظِّي أن أولد في هذه البلاد المقدسة ، إنَّما وُلدت بعيداً عنها ، هكذا أراد قضاء الله ، وحكمته . ونشأتُ في بلادٍ لا تنطق باللغة العربية ، وهنا أستاذنا الجليل العلاّمة الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي ، اسألوه عن بلادنا ؛ فإنَّه مكث فيها مدةً ، بلادٌ بعيدة عن مهد الإسلام ، بلادٌ بعيدة عن لغة العرب ؛ ولكننا كلُّنا ـ والحمدُ لله ـ نعتزُّ بعقيدتنا الإسلامية ، ونعتقد ، ونؤمن مخلصين بأنّه

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٣٨٨) و(٤٣٩٠) .

لا سعادةَ لنا ، ولا نصرَ ، ولا قيامَ لنا ، إلا باتباع محمد ﷺ .

إنَّ شاعرنا يقول : « إنَّ مَنْ لم يرضَ بأن يكونَ ترابَ عتبةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فليكنْ الترابُ على رأسهِ » .

ومن لم يرضَ أن يمشي في ركابِ رسولِ الله ﷺ ، ويتمسك بأسبابه[1] ، فإنَّه لا وسيلةَ له عندَ الله ، ولا أملَ له في الانتصار ، ولا سبيل لكم أيها الإخوان إلا الخضوع لقيادة محمد ﷺ .

وإذا أبيتم ذلك ـ أعاذكم الله ـ وأبت ذلك كبرياء القومية العربية ، فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد حرَّم النصرَ ، وحرَّم العزة والكرامة ، وحرَّم الفتح .

إنَّ الله ربط مصيرَ العرب بِقَدَمِ محمد ﷺ . إنَّ الله ربط سعادة العرب بمحمد بن عبد الله ﷺ ، لم يربطها بقائد اشتراكي ، أو زعيم قومي . لا تقوم للعرب قائمةٌ ؛ حتى يمشوا في ركاب محمد ﷺ . إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يومَ بعث محمداً ﷺ في مكة في اليوم الذي بعثه تَقَرَّرَ في ذلك اليوم ، وفي تلك الساعة ، وفي تلك اللحظة : أنَّ مصير الإنسانية مربوط بهذا الشخص الكريم ، وأنَّه لا سعادةَ بغير قيادته ، وبغير اتباعه . .

إنَّ كثيراً من الحيوانات تَعْتَبِرُ ، وتنتفع بالتجارب ، فما لنا لا

(١) الأسباب : جمع سبب ، وهو الحبل ، وكل ما يتوصل به إلى غيره .

نعتبر ؟ ماذا أعطانا هؤلاء الزعماء ، وهؤلاء المتشدِّقون ؟ أي مصير بدَّلوا ، أيُّ شقوة كانت قد كتبت علينا مَحَوْها ، أيُّ اعتبارٍ كنَّا فقدناه ردُّوه إلينا ؟

هذا التاريخ المشرق الزاهي قد فقد الشيءَ الكثير من روعته ، وتأثيره في النفوس ، كنا دائماً نفتخرُ بالتاريخ الإسلامي العربي ، فصعب علينا الآن أن نتمثل به في المجالات العامة ، فقد أصبحت الفجوةُ عميقةً واسعةً بين الماضي ، والحاضر ، وبين الآباء ، والأبناء .

احتفظوا ـ أيها الإخوان ـ بالبقية الباقية من الغَيْرة الإسلامية ، والكرامة الإنسانية ، قوموا لتحملوا الدعوة الإسلامية إلى الآفاق ، ستستقبلكم هذه الآفاق ، العالم يتطلّع إليكم أيها العرب ، ليس من المعقول أن يحترمكم إنسانٌ في الهند ، وفي باكستان ، وفي تركية ، وفي أندونيسية ، بمجرّد القومية العربية ، ولكن من المعقول جداً ، أن يحترمكم لإسلامكم ، ولإيمانكم ، ولحرصكم على الهداية ، ولأخذكم بيد الضعيف ، ولمنعكم الظالم عن الظلم ، ولاتِّصافكم بالفضائل الخلقية ، وتمسُّككم بالدعوة الإسلامية .

إنَّ العالم الإسلامي قد فتح ذراعيه ؛ ليعانقكم ، ويضمكم إلى صدره ، كما ضمكم إلى صدره قبل قرون .

إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خرجتم من جزيرتكم ، تحملون

مشعل الدعوة الإسلامية ، وفتحت لكم الهندُ صدرها ، فتحت لكم أفغانستان ، وإيران ، وسمرقند ، وبخارى ، فتح لكم البربرُ هؤلاء الذين ما عرفوا الهزيمةَ في تاريخهم ، إنَّهم لم يخضعوا بحدِّ السيف ، إنما خضعوا لمعجزة الإسلام ، خضعوا للإخلاص ، خضعوا للعطف ، والرحمة بالإنسانية ، وللعدل الذي كنتم تحملونه معكم أينما حللتم ، خضعوا لفضل المساواة ؛ التي كنتم تعاملون بها الأمم ، والأفراد .

بالله قولوا لي : ما هي رسالة القومية العربية للإنسانية ، وأيُّ خير للإنسانية جمعاء في قومية من القوميات ، قومية بقومية ، جنسية بجنسية ، ودم بدم ، ومدنية بمدنية ، إذا افتخرتم أنتم بالقومية العربية ، فهنالك مئات من الشعوب تفتخر بقوميتها ، لا فضل لقوميةٍ على قوميةٍ ، ولا فضلَ لحضارةٍ بائدةٍ على حضارةٍ بائدةٍ ؛ إنَّما الفضل للرسالة الخالدة التي جاء بها محمد ﷺ .

فارفقوا بأنفسكم أيها العرب ، قبل أن ترفقوا بغيركم ، ارفقوا بنفوسكم ، ارفقوا بمستقبلكم ، ارفقوا بأجيالكم القادمة ، ارفقوا بتاريخكم ، ارفقوا بهذا الاحترام ؛ الذي لا يزال لكم عند الشعوب الإسلامية .

إنَّ العالم ينتظركم مرة ثانية ؛ لتنقذوه من هذه الجاهلية المعاصرة ، من (**جاهلية القرن العشرين**)التي غزت العالم ، واكتسحت العربَ ، والعجمَ ، وأن تعيشوا للإسلام وبالإسلام ، فيعود

إليكم مركزكم القديم من القيادة ، والهداية ، ومكانكم القديم من القلوب ، والنفوس ، ويكون النصر حليفكم في كلٍّ معركة .

﴿ تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد : ٧] .

* * *

المحاضرة السّابعة

نِدَاء

إلى رجال الصّحافة ، والإذاعة ، والكتَّاب ، والأدباء ، وقادة الفكر ، وزعماء الإصلاح في الأقطار العربية

إخواني في الدين ، وزملائي في الصحافة ، والكتابة : السلامُ عليكم ، ورحمةُ الله وبركاته .

وبعد : فأعزِّيكم ـ تعزيةَ مفجوعٍ لمفجوعٍ ـ في كارثةِ العالم العربي ، التي لا يوجدُ لها نظيرٌ في تاريخنا الإسلامي العربي القريب ، وإنَّ اللغة العربية على عبقريتها اللغوية ، وسَعتها المعجزة ، وإنَّ معاجمنا على غناها ، وضخامة ثروتها لتعجز عن مجاراتنا ، وإسعافنا في إبداء الشعور العميق ؛ الذي يملكنا في هذه المناسبة ، وفي أقلَّ من هذه المأساةِ نكبةً ، وأقصر منها رقعةً ، قال أميرُ الشعراء :

سلامٌ من صَبَا بردى أرقُّ ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ
ومعذرةُ اليَرَاعَةِ والقوافي جلالُ الرُّزْءِ عن وَصْفٍ يَدِقُّ

لقد كانت مأساةً جنت على كرامةِ العرب في كلِّ رقعةٍ من الأرض ،

وكرامة تاريخهم ؛ الذي كان المؤلفون ، والباحثون يقفون أمامه دهشين خاشعين ، وذلَّت لها رقاب المسلمين في كلِّ بقعة يسكنونها .

وهبَّت عليهم في هذه الأيام التي انتشرت فيها أخبارُ النكبة عاصفةٌ هوجاءُ من الشماتة ، والهزء ، والسخرية ، والتندُّر المرير ، والتنكيت اللاذع من جيرانهم ، ومواطنيهم ، لا يقدِّر عنفها ، ولذعها ، وتخاذل المسلمين أمامها إلا من استُهدف لذلك ، أو شاهده .

ولقد لبست الهندُ الإسلامية ـ ككل بلدٍ يسكنه المسلمون في عدد كبيرٍ ـ ثوبَ الحدادِ ، وغَرِقتْ في بحرِ الأسى ، والحزن ، والخجل ، ولا يزالُ حديثُ فلسطين ، وحديثُ المسجد الأقصى ، وحديثُ كارثة العالم العربي بصفة عامة يشغل أكبر جزءٍ من الصحف ، والمجلات الإسلامية .

ويبحث الكتَّاب الكبار عن أسباب هذه النكبة في عمقٍ ، ودقةٍ ، وصراحةٍ ، وقوةٍ ، يبحثون عنها في حياة إخوانهم العرب ، الذين يدينون بحبهم ، وينظرون إليهم كالجيل المثالي للإسلام ، وكأصحاب الفضل عليهم في التخلص من جاهليتهم ، ووثنيتهم القديمة ، ويدرسون القرآن ، ويستفتونه بذلك ، فيجدون فيه البيان الوافي ، والجواب الشافي ، وينتقدون القيادة الرئيسية التي تحمَّلت مسؤوليةَ الحرب ، ووقفَ إطلاق النار ، يتناولون ذلك ببحث ديني ، وتحليل علمي عملًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] ، لا تمنعُ

من ذلك مصلحة سياسية ، ولا دعاية قومية ، فإنَّ الأمم تعيشُ على محاسبتها لنفسها ، وقادتها ، فإنَّ الأمة خالدة ، والقيادات عارضة ، فلا يضحَّى بالأمة في سبيلِ القيادةِ ، وإنَّما يضحَّى بالقيادةِ في سبيلِ الأمة ، وليس أمثالكم في حاجة إلى الإفاضة في هذا الموضوع .

ظللنا نتابعُ قراءةَ الصحف التي تصدر من الأقطار العربية الشقيقة ، وكنا مؤمنين بأنَّ النكبة الحديثة التي هزَّت الحياة ، وهزَّت المشاعر في كلِّ بلد إسلامي لا بدَّ أن تهيمن على كلِّ ما يكتب في الصحف ، والمجلَّات ، وتطبعها بطابعها ، وكنَّا نتوقع : أنَّ الحديث عن أسباب النكبة ، ومواضع الضعف في مجتمعنا العربي ، وفي أخلاقنا ، وأوضاعنا ، سيغلب على كلِّ حديث وموضوع ، بحيث إذا اطَّلع أحدٌ على عدد لأيِّ صحيفة ؛ عرفَ أنها صحيفة أيام النكبة ، وصحيفة أمة منكوبة ، وصحيفة أسرة مفجوعة ، في أعزِّ أعضائها ، وأفلاذ كبدها ، وأنها ستتعرّض لنقد المجتمع ، النقد المخلص النزيه ، نقد الأستاذ الشفيق ، والمربي الرفيق ، وتتعرَّض لنقد القيادات التي أدَّت إلى هذه النتيجة المخزية ؛ التي لم ينته إليها المسلمون بعد سقوط بغداد في أيدي التتر الوحوش ، ووقوع العالم الإسلامي كلِّه تحت أقدامهم ، وسنابك خيلهم ، النتيجة التي وصمت وجوه المسلمين بوصمة عار ، لا يغسلُها ، ولا يزيلُها إلا فتحٌ مبين من فتوح صلاح الدين ، أو وقعة حاسمة مشرِّفة كوقعة حطين .

نصارحكم كأعضاء أسرة الأدب ، والكتابة ، وكزملاء مهنة

الصحافة ، بأننا لم نجد هذه الصحف والمجلات العربية الشقيقة تخضعُ لآثار هذه النكبة ، وَتَنِمُّ عن أثرِها العميق في النفوس والقلوب ، وفي الأدب ، والبيان ، كما كنا نتوقع .

ولم نرَ الباحثين من العلماء ، والكتَّاب يبحثون عن جذور هذه النكبة الدقيقة العميقة في أعماق المجتمع العربي ، الجذور التي مهَّدت السبيل لهذه النكبة ، وسهَّلت سيرها ، وتقدُّمها ، بل دعتها لشقّ طريقها إلى الأمام ، تغزو وتفتِّت ما أمامها ، وكأنه قصرٌ من زجاجٍ ، أو بيتٌ من ورقٍ ، وتثبت : أنَّه لا يحتمل أقلَّ صدمة في معترك الحياة .

وقد بلغ هذا الأسلوب من الحياة أوجَهُ ، وقِمَّتَهُ في الحواضر العربية ، وتزعَّمتِ القيادة المصرية بأقوى وسائل الزعامة التي لم تتهيأ ـ ولا أقدِّر أنها ستتهيأ في القريب العاجل ـ لبلد آخر في الشرق العربي .

وقد كان انهيار هذه الحياة الانهيار الفظيع درساً قاسياً لكلِّ بلد إسلامي عربي على وجه الأرض ، وآخر فرصة لمراجعة سيره ، واتجاهه ، ومقاييس سعادته ، ونجاحه . وقد علمتنا هذه التجربة المريرة : أنَّ كل بلدٍ يتجه هذا الاتجاه معرَّض لهذا الانهيار عاجلاً ، أو آجلاً .

وقد تحقق ، وأسفر كالشمس في رابعة النهار : أنَّ شيوعَ المنكرات ، والبذخ ، والترهُّل في الحياة ، وظهورَ ما يُغضِبُ الله ،

ورسوله ﷺ من أعمال ، وأقوال ، وأخلاق ، وعادات ، وما يضعف نشاط الشعب ، وحماسه في سبيل العقيدة والكرامة ، والفوضى الفكرية ؛ التي تجرها الصحافة المحترفة ، والأدباء الماجنون ، والمجلات الخليعة ، والأدب المكشوف تفقِدُ الأمةَ روحَ المقاومة للعدو ، والثباتَ على المبدأ ، وتحمُّل الشدائد ، وتحرِمُ البلاد ، والأمة من نصر الله ، وتعرِّضها للخذلان ، وقد رأينا مثاله الفظيع في المعركة الأخيرة .

وقد ألقت الحياةُ في مصر ، وصحافتها ، وإذاعتها ونتاج مكتباتها العملاقة ظلالها الكثيفة السوداء على المجتمعات العربية كلِّها ، وخضعت لتأثيرها في قليل ، أو كثير ، على قرب بعضها ، وبعد بعضها ، وحب بعضها ، وكره بعضها .

وفعلت الحضارة الغربية ، وتسهيلات التوريد ، ونشاط التجارة الأجنبية ، وإقبال هذه الشعوب على ترفيه النفس بنهامة جامحة غريبة فعلَها الطبيعي في هذه البلاد ، فأصبحت الحياة في جميع الأقطار العربية متشابهة متشاكلة ، وهذا ما ينذِرُ بخطرٍ كبير ، ويشغل فكر المحبين المخلصين الذين يربطون مصيرهم ، ومصير الإسلام ، والمسلمين بهذه البلاد ، وبهذه الشعوب .

إنَّ وجود هذه الحياة التي أشرنا إليها إشارةً لطيفةً لخطرٌ جاثمٌ على البلاد ، وسيفٌ مُصْلَتٌ على رقابها ، ضعف العدو ، أو قوي ، وقرب ، أو بعد ، كما أنَّ وجود البركان المتهيِّىء للانفجار في بلد منذرٌ

بالخطر ، وأعظم هولاً من كلِّ خطر خارجي ، أو عدوٍّ متربِّص . وإلى ذلك أشار النبيُّ ﷺ في أول إنذارٍ تقدَّم به إلى قومه بَعْدَ ما أُكرم بالنبوة ، يوم قام على جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه ! » فهُرع إليه أهلُ مكة ، وأكبرُ ظنِّهم أنه سيخبرهم بعدوٍّ من وراء الجبل ، يريد أن يهجم عليهم على حين غِرَّة وهو الصادق الأمين ، فقال : « يا بني فهر ! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم : أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريدُ أن تغير عليكم أصدقتموني ؟ ! » .

قالوا : نعم .

قال : « فإنِّي نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ »[١] .

أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهددهم ، والذي هو طبيعة هذه الحياة ؛ التي كانوا يدينون بها ، والأصنام التي كانوا يعكفون عليها .

وقد أعاذكم الله ، وأعاذ المسلمين في بقاع الأرض من الوثنية التي كان قد غاص فيها العربُ الأولون إلى الآذان ، وحمى هذه الجزيرة من أن تُعبد فيها الأوثان ، فليسَ لأحدٍ على وجه الأرضِ أن ينذركم بعاقبة أهل الشرك ، والوثنية ، أو يخاف عليكم من مصير الكفَّار والمشركين ، **ولكنَّ الحياةَ** ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ المترفِّهة المترهِّلة الباذخة المترفة ؛ التي نعيشها في كثير من بلادنا الإسلامية والعربية ،

---

(١) تقدم تخريجه ، ص١٠٩ .

وإيثار مصلحة النفس على مصلحة الجماعة ، والنهامة للمادة ، والتهالك على الشهوات ، والحب الغالي للحياة ، والكراهية الزائدة للموت ، والاستخفاف بمحارم الله ، والوقوع في كثير من حدوده ، ثم الانجراف المتهوِّر وراء النعرات الجاهلية ، والشعارات القومية ، والافتتان بالاشتراكية ، والشيوعية ، وقلة الشكر على ما نحنُ فيه من نعيمٍ ، ويُسْرٍ ، وحريةٍ ، وفُرَصٍ ، والتذمُّر من كلِّ موجود ، والتطلُّع لكلِّ مفقود ، وقلَّة الاعتبار بالدروس القاسية ، والحوادث الواقعة من حولنا ، والحرص الشديد على تقليد مصر ، واتخاذها المثل الكامل في كلِّ شيء ، وعدم المحاسبة للمجرمين ، الذين جرُّوا على العالم العربي هذا الشقاء والبلاء ، **كلُّ ذلك أشدُّ خطراً على هذه البلاد** من عدو قاعد بالمرصاد ، وهو الخطر الذي له مظاهر ، وألوان ، وأشكال ، لا تحدُّ ، ولا تستقصى ، ومن مظاهره إسرائيل ، التي لم تكن لتحلمَ بهذا الانتصار الفريد ، الذي لا يوجَدُ له مثيل في تاريخها الطويل ؛ الذي يمتد على ألفي سنة ، ولم تكن لتجرؤَ على غزو بلادنا المقدسة ، وتكسبَ المعركة في ستة أيام ، أو في أربع ساعات ، كما يقول بعض الخبراء .

اسمحوا لي أن أقول : **إنَّ من أعظم أسباب النكبة** التي نكبت بها مصر ، وامتدت هذه النكبة إلى جميع البلاد العربية : **الصحافةُ ، والإذاعةُ المصريتان** ، فقد لعبتا دوراً في إفساد الذوق ، وشلِّ النظام الفكري ، وتخدير الأعصاب ، وتعمية الأبصار عن إدراك الحقائق ،

ونشر المجون ، والعبث بالقيم والموازين ، وأصول الأخلاق ، والشرائع .

وإنَّ كل شعب يعيش تحت وطأة هاتين السلطتين ، اللتين تستحقُ أن تسمَّى كلُّ واحدة منهما صاحبة الجلالة ، ويهبها قلبه ، وعقله ، وسمعه وبصره ، لا بدَّ أن يفقد الاتِّزان ، ويخلَّ الميزان ، فلا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، ولا يحبُّ طيباً ، ولا يعاف خبيثاً ، وإنَّه عرضة لكل خطر ، وهدف لكل أهانة ، وجدير بكل هزيمة : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢] .

إنَّ هذه النكبة ـ لا سمحَ الله بها ـ لا تمنعُ ، ولا تسدُّ في وجهها الأبواب ، والطرق بالتقدم في المدينة ، والزيادة في أسباب الترفيه ، والتسلية ، ولا باقتباس المناهج الفكرية ، أو المذاهب الاقتصادية الحديثة ، فقد فعلت مصرُ ، وسورية كلَّ ذلك ، فلم يغنِ عنهما شيئاً ، بل كانت من أسباب النكبة .

إنَّه لا يحالُ بينها ، وبين الشعب إلا بالإنابة إلى الله تعالىٰ ظاهراً ، وباطناً ، والتمسُّك بحبله ، والالتجاء إلى عتبته ، وتحكيم الشريعة في الحياة ، وإخضاعها للآداب ، والأخلاق السامية ، وترك المشاقَّة لله ، ورسوله ﷺ ، والدخول في السلم كافةً ، والأخذ بالجد ، واللباب في المدينة والحياة الفردية ، والاجتماعية ، وتوطين النفس على تحمُّل

المكاره ، وشَظَف العيش ، وخلال[١] الرجولة ، والفتوَّة ، والعمل بما أمر به مربي الجيل الإسلامي الأول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بقوله : « تَمَعْدَدُوا[٢] ، واخْشَوْشِنُوا[٣] ، واخْشَوْشِبُوا[٤] ، واخْلَوْلِقُوا[٥] » ، وحياة الاقتصاد ، والبساطة في جميع المجالات ، والكفِّ عن الإسراف ، والمجون ، والتبذير الفاحش ، والمواساة لجميع الطبقات ؛ التي أمر بها الإسلام ، ومحاربة الفقر المدقع ، والغنى الفاحش في وقتٍ واحد في ضوء تعاليم الإسلام ، وأسوة الرسول ﷺ والصحابة ، والتابعين لهم بإحسان من غيرِ تقليدٍ لمذهب اقتصادي مستورَد ، ومن غيرِ خضوعٍ لفكرةٍ أجنبية ، والبراءة من القيادة التي عبثت بعقول الأمة ، وعاثت فساداً في البلاد ، والعباد ، وجرَّت عليها الشقاءَ ؛ الذي لا مثيلَ له في تاريخنا الطويل ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] ، وقال : ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : ٩٧] .

---

(١) الخلال : الخصال .
(٢) تمعدد الغلام : شب ، وغلظ . وقيل معناه : تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ ، وتقشّف .
(٣) اخشوشن : تخشّن في المطعم ، والملبس .
(٤) اخشوشب : صار صلباً كالخشب في أحواله ، وصبره على الجهد .
(٥) اخلولقوا : تبذّلوا في الملابس .

والصحافة ، والإذاعة ، والأدب ، والكتابة هي أقوى وسيلةٍ لغرس هذه المعاني في النفوس ، وتحبيبها إلى العقول ، وتسريبها في الحياة ، وأخاف أن تكونَ هذه آخرَ فرصةٍ ـ لا قدَّر الله ـ للانتباه من السُّبَات ، وتدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت ؛ فأرجو أن تتجلَّى هذه المعاني في كلِّ عدد من صحفنا ، وفي كلِّ برنامج من برامج إذاعاتنا ، وفي معظم ما نكتب ، وما نقول ، وأن تجنِّد لها الحكومات وسائلها ، ويجنِّد لها الأدباء ، والشعراء والكتَّاب ، والصحفيون ، والمذيعون قواهم ، ومواهبهم ، وطاقاتهم ، ويسخِّروا لها القرائح ، والعبقرية الأدبية ، والمعاني الشعرية ، والبراعة الكتابية ؛ حتى يؤمنَ بها الشعبُ إيماناً راسخاً ، ويتخذَها منهجاً في الحياة . وبذلك لا نعتصمُ عن نكبة جديدة فحسب ، بل نستطيعُ بحول اللهِ تعالىٰ أن ننقذَ العالم العربيَّ من هذا الوضع الفظيع ، ونستعيدَ فلسطين ، والمسجد الأقصى ، ونستردَّ ما خسرناه من كرامتنا ، واعتبارنا ، ومن كرامة التاريخ الإسلاميِّ ، والعربيِّ ؛ الذي فقد الشيءَ الكثير من قيمته ، وجلاله ، وروعته ، وثقة الناس به .

وهذه أمانةٌ في أعناق جميع الكتَّاب ، والأدباء ، والصحفيين ، وحملة الأقلام ، والخطباء على المنابر ، وزعماء الشعوب العربية ، وقادة الفكر والرأي .

« اللهمَّ هل بلَّغت ؟! » .

* * *

المحاضرة الثَّامِنة

إزالةُ أَسبابِ الخُذْلان

أَهَمُّ وأقْدَمُ مِنْ إِزَالَةِ آثَارِ العُدْوَان[١]

إنَّ الكتابَ الذي آمنا به ـ نحن المسلمين ـ ليسَ كتابَ عقائدَ وأحكامٍ فقط ، بل هو كتابٌ تعرَّض لبيان سنن الله في خلقه ، ونواميسه في الكون ، وذكر أنماطاً مختلفة من البشر ، ونماذجَ متنوعة من الحياة ، ومناهجَ متباينة من الأخلاق ، وما أودع الله تعالىٰ فيها من الخواص ، والطبائع ؛ التي لا تفارقها في ملايين من السنين ، وما قرن بها من النتائج ، والآثار ؛ التي لا تتخلَّف عنها في دور من أدوار التاريخ ، وما قرَّر عليها من الجزاء ، والعقوبات ، وما ربط بها من السعادة ، والشقاء ، والبؤس ، والرخاء ، والهزيمة ، والنصر ، والقوة ،

---

(١) أُعدّتْ هذه المحاضرة لدورة رابطة العالم الإسلامي المنعقدة في منتصف شهر رجب ١٣٨٨هـ ، وقُرِئت بعنوان ـ الطريق الوحيد إلى النصر ـ وحَظِيَتْ بموافقةٍ عامةٍ ، وتأييد كلِّيٍّ ، وعلَّقَ عليها ثمانيةٌ من أعلام العالم الإسلامي ، وأبرز أعضاءِ المجلس التأسيسي للرابطة .

والضعف ، وقد أعلنَ : أنَّها سنن أزليَّة ، لا تختلف باختلاف الزمان ، والمكان ، ولا تلغى لمصلحة أمة ، أو إنسان : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢] .

ولم يقصَّ القرآنُ علينا قصصَ الأمم الخالية ، والقرون الأولى في تفصيلٍ ، وتكرارٍ ـ والقرآنُ ليس كتابَ تاريخٍ ، وأساطيرَ ـ ولم يُفِضْ في الحديث عن اليهود ، ولم يتوسَّع فيه هذا التوسُّعَ ؛ إلا ليؤمنَ المسلمون ـ وهم الأمة الأخيرة ـ بنتائج الأعمال ، والأخلاق ، ومناهج الحياة ، ويعتبروا بمصير اليهود ، وما كتب عليهم من الشقاوة ، والسعادة ، والهزيمة ، والنصر في مختلف أدوار تاريخهم ، خاضعاً ذلك كله لمنهج الحياة ؛ الذي آثروه ، والأخلاق التي تخلَّقوا بها ، والحياة التي عاشوها .

فهم الأمة التي أكرمها الله بالنبوَّة ، والملك : ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة : ٢٠] ، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة : ٤٧] .

واليهود أمةٌ أكرمها الله بعزٍّ ، وكرامة ، ونصرٍ ، وغلبة ، وبركات ، ونعم عن طريق النبوة ، والدين ؛ الذي آمنوا به ، وتفانوا في سبيله ، وعن طريق الطاعة ، والامتثال لأوامر الله ، ثم طلبوا كلَّ ذلك عن طريق الدنيا ، وعن طريق الملك ، وعن طريق المادة ، وعن طريق المكر والدهاء ، والمؤامرة ، والسرِّيَّة وعقلية الهدم ، والتخريب ،

واستغنوا عن أسباب النصر الحقيقية ، فقال : ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

وأعلن كحقيقة خالدة عالمية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] ، وقال مخاطباً المسلمين : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣] .

هذا هو المنهجُ القرآنيُّ لنتائج أعمال الأمم ، وأخلاقها ، الذي تناساه المسلمون في الدور الأخير في مشارق الأرض ، ومغاربها ، وفي البلاد التي لها حكوماتها ، وحريتها ، وفي البلاد التي ترزح تحت العبودية ، على طريقة سواء ، وأخذوا بسحر المدنية الغربية ، وفلسفاتها ، واعتمدوا في تغيير الأوضاع ، وكسب المعركة ، ومواجهة القضايا المعقَّدة الدقيقة على الأساليب التقليدية السطحية ؛ التي لم يتمسك بها الغرب في حلِّ قضاياه إلا مدةً يسيرةً من تاريخه القديم ، ثم دفعها إلى الشرق ليتعلَّل بها ، وهي : الدعاية ، وعقد أكبر عددٍ من الحفلات ، والمؤتمرات لإثارة الجماهير ، وإرعابِ الخصوم ، والدعايةِ في الصحف ، واتخاذِ عددٍ هائلٍ تضيقُ عنه الدفاتر ، والصحف من القرارات ، والمشروعات .

واعتقد الشرق الإسلاميُّ ، وشعوبه ، وحكوماته : أنَّه الطريق الوحيد لحل القضايا ، والوصول إلى الأهداف ، وعضَّ عليها بالنواجذ .

وليس تاريخُ الشرق الإسلاميِّ في حلِّ القضايا ، والكفاح السياسي إلا تاريخاً طويلًا متصلًا لهذه التجربة الفاشلة ، والتفكير السطحي الخاطىء ؛ الذي لم تحلَّ به قضية في بقعة من بقاع الأرض في عهدنا ، والذي ليس إلا ضرباً من التسلية ، واستنفاداً للجهود ، والقوى ، واستفزازاً للشعور ، والعواطف في غير نتيجة .

ولم نعرف بلداً غربياً ، أو شعباً من الشعوب الغربية ، أو الإفريقية اقتصر على هذه الأساليب ، واعتمد عليها ، ثم وصل إلى النتيجة ، أو نال الحرية ، أو الاستقلال ، أو دحر العدوَّ الجاثم على صدره .

وحسبنا قضية فلسطين مثالًا ، فقد اعتمدنا في حلِّها من أول يوم على نفس الأساليب التقليدية التي تلقَّيناها من الغرب ، في غير وعي واجتهاد .

فلا أعرفُ قضيةً شرقيةً ـ فضلًا عن إسلامية ـ أُلقي في موضوعها من الخُطَب ، وكُتبَ فيها من المقالات ، وعُقد لها من الحفلات ، والمؤتمرات ، واتُّخذ لها من المشروعات ، والقرارات ، ونُظِّم لها من المواكب ، والمظاهرات ما كان لهذه القضية ؛ التي ظلَّتِ الشغلَ الشاغلَ للعرب والمسلمين بعدما وضعت الحرب الكونية الأولى

أوزارها[١] ، وأعلن مشروع وطن اليهود[٢] ، فكانت مقدِّمةَ كلِّ خطبةٍ ، وموعظة ، وتكأةَ كلِّ خطيبٍ ، ومتحدِّثٍ ، وسندَ كلِّ زعيمٍ ، وقائدٍ في كسب الرأي العام ، والسيطرة على عقول الشباب ، والجماهير .

فقد ضَرَبَتْ هذه القضيةُ الرقمَ القياسيَّ في كثرة الحروف التي كتبت على الورق ، وعدد الكلمات التي انطلقت إلى الفضاء ، وهي قضية في منتهى العدل ، وأقرب القضايا في العالم المعاصر إلى الفهم ، والعقل ، ثم لم يغنِ ذلك كلُّه عنا شيئاً .

واستطاعت إسرائيل ـ هذه النقطة المغمورة ببحار من البشر ـ أن توسِّع مملكتها إلى حدودٍ لم تكن تخطرُ بالبال قبلَ اليوم المشؤوم (٥ حزيران) وتمتلك القدس الشريف ، والمسجد الأقصى المبارك ، الذي حُرِمَتْهُ منذ آلاف من السنين ، وكان حَظُّها من هذه الأساليب ؛ التي تمسَّكَ بها العرب ، والمسلمون ، والثروة التي أنفقتها من الكلام ، أو من المؤتمرات ، والحفلات ، أو من البيانات ، والإعلانات قليلًا ، إلى حدٍّ يدعو إلى الدهشة ، والاستغراب .

---

(١) استمرّت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات من عام ١٩١٤م إلى عام ١٩١٨م .

(٢) وذلك في صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، وسبقه وعد بلفور ١٩١٧م .

وظلّت معركةُ الكلام حاميةً طول هذه المدة ، ولم تقمْ محاولةٌ جدِّيةٌ ، ولا برزتْ دعوةٌ صريحةٌ قويةٌ إلى تغيير منهج الحياة في الشعوب ، والبلاد ؛ التي اكتوت بنار هذه الجناية الغربية الكبرى ، التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث ، وتعرَّضت للخطر الصهيوني بطريقٍ مباشرٍ ، ولا دعوةٌ إلى إزالة أسباب السخط ، والخذلان ؛ التي بيَّنها القرآن في أسلوبه البليغ السافر ، وكسب أسباب النصر الحقيقية التي دعا إليها الكتاب ، والسنة ، وحفل بنتائجها ، وأمثلتها التاريخ الإسلاميُّ ، ولم يشعر أحد بحاجة إلى استفتاء القرآن ، والعقل الإيماني الواعي المنصف ؛ الذي لا يكذب ، ولا يخدع عن أسباب هذه النكبة ، وحدوث هذه المشكلة الطريفة ، التي حار في تعليلها العقلاء ، وعجز عن حلها الزعماء ، وردها إلى أخطاء ارتكبتها الشعوبُ العربية منذ ثورتها على الدولة العثمانية الإسلامية ، وانضوائها إلى الحلفاء الآثمين المعتدين ، والقتال بجوارهم ، ولم يلتفت أحدٌ إلى محاربة الأدواء الخلقية ؛ التي تسبب الوَهْنَ ، وهو حب الدنيا ، وكراهية الموت ، والرِّقَّة ، والنعومة ، والإخلاد إلى الراحة .

بل بالعكس من ذلك لم يزل يجدُّ ويستفحلُ في هذه الشعوب ، والأقطار من الدعوات ، والهتافات ، والشعارات ، والفلسفات ما يُبعدها عن الدين ، ويُغْضِبُ الله ورسوله ﷺ ، ويقطع صِلةَ الأمة عن النصر ، ويحول بينها ، وبينه من دعوات جاهلية ، وأسماء مخترعة ما

أنزل الله بها من سلطان ، والاعتماد على أشخاص ، وقادة لا يزنون عند الله جناح بعوضةٍ .

واكتفت بعضُ الدول ؛ التي تزعَّمت هذه القضية ، ووعدت بالنصر ، والفتح المبين بالغوغائية ، والسلبية ، والدعاية الفارغة ، والجهاد في غيرِ عدو ، واستنفادِ أكبر قدر من الأصوات ، وعدد من الحروف ، والكلمات ، التي خلقها الله ، وزخرت بها اللغة العربية العبقرية ، واستخدام أقوى الحناجر وأحدِّ الأقلام لكسب المعركة ، حتى جاءت الساعةُ ؛ التي لا ينفعُ فيها إلا الجدُّ ، والحقيقة ، والتهالك على الموت ، والمغامرة ، والبطولة ، والتقشف ، والجلادة ، فانهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد ، وانحسر فيضانُ الكلام أمام جيشٍ لا يعرفُ إلا المغامرة ، والاقتحام ، وكان ما كان ، مما نكَّس رؤوس المسلمين ، وأذلَّ رقاب العرب في مشارق الأرض ، ومغاربها .

وكان من المؤكد المضمون ، والبديهيِّ المعقول ، ومما يوافق طبيعةَ هذه الأمة ، ويتفق مع تاريخها الطويل : أنَّ العربَ سيعتبرون بهذا الدرس القاسي ؛ الذي لا درس بعده ، وأنه سيتغير تيار الحياة في هذه البلاد ، وأنها ستستأنف حياة جديدةً تختلف عن الأولى كلَّ الاختلاف ؛ فيحل الإيمان مكان الارتياب ، والاضطراب ، والإسلام الحقيقي مكان النفاق ، والرياء ، والتقشف ، والخشونة مكان الرِّقَّة ، والنعومة ، والأخذ بالجد مكان التمسك بالقشور ، والمظاهر ، وأنهم

سيبدِّلون أسباب الترفيه ، والتسلية بأسباب الفداء ، والتضحية ، وأنَّ الشعوب العربية ستعيشُ في ظلِّ الاستعداد ، والحذر ، وفي حالة الطوارىء ، وأنَّها ستقوم في كلِّ بلدٍ عربي ـ فضلاً على مهد الإسلام ومأرز الإيمان ـ محاولاتٌ جدِّيةٌ لمحاربة أسباب الفشل ، والضعف ، والاتجاه إلى التمتع الرخيص ، والتهام اللذة الفارغة ، وما يحدِثُ في الأمة الرِّقَّة ، والجبن ، وينسيها العارَ ؛ الذي لا يغسله إلا الثأر ، والجروح ؛ التي لا تضمِّدها إلا الفتوح .

إننا أمام الأمر الواقع المرير ، وسيفُ الخطر مُصْلَتٌ على رقابنا ، وقد تمثَّلت لنا كلمة الفاتح الإسلامي العربي طارق بن زياد من جديد : « أيها الناس! أين المفرُّ ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق ، والصبر ! »[(١)] .

لقد مضى زمن الكلام ، وزمن القرارات ، والبيانات ، والحفلات ، والمؤتمرات ، وأصبحت لا قيمة لها ، ولا تأثير . لقد أصبحت الطرق الدبلوماسية ، والأساليب السياسية عقيمةً ، لا يحتفِلُ بها أحد .

إنَّ أكبرَ سياسة ، ودهاء ، ورأس الحكمة هو الإخلاصُ ، فلا تزالُ أكبرُ قوة تخضع للإخلاص ، وتحترمه ، كما كان ذلك قبل مئات ، أو آلاف من السنين ، يوم لم تتعقَّد المدنيةُ هذا التعقيد ، ولم تتوسع

(١) تقدَّم الحديث عن موقف طارق هذا ص(٣٨) .

العلوم هذا التوسُّع .

لقد أصبح الغربُ الذي لا يزال أستاذاً في السياسة ، والدبلوماسية قليلَ الاحتفال بهذه الأساليب القديمة التقليدية ، التي لا تزالُ الحكومات الشرقية تعتمدُ عليها كلَّ الاعتماد ، وتؤمِّل فيها كلَّ خير ، وصار ينظر إليها كمسرحيات قديمة كانت تمثَّل في الدور البدائي ، ثم تقدَّم العالم تقدماً كبيراً .

إنَّ طارقاً قال لجيشه : « وأنتم لاوَزَرَ لكم إلا سيوفكم » . ولسان الحقيقة يقول لنا : لاوَزَرَ لكم[١] أيها المسلمون ، والعرب إلا الإخلاص .

إننا لا نزال نعيشُ مع عقليتنا القديمة في فجر القرن العشرين ، ولا نزالُ نعتمد على الأساليب العتيقة ، والتي آمن الغربُ ، وآمن العالمُ كلُّه بتفاهتها وقلة جدواها ، فلنخلصْ لله ، ولندخلْ في السِّلْم[٢] كافَّةً ، ولنطبِّق ما نقولُ ، ولندع النفاقَ ، ولنؤمن بأنَّ هذه الحياة ـ الحياة التي نحياها ، ولا نزال نزيدُ في أسباب فسادها وتعفُّنها ، كشارب ماء البحر ؛ الذي كلَّما شرب منه ؛ ازداد عطشاً ـ هي مصدر الخطر ، والمانعة من النصر .

في وادي مكة قام محمد بن عبد الله ﷺ قبلَ ثلاثة عشر قرناً على

(١) الوَزَرُ : الملجأ .

(٢) السلم : الإسلام .

جبل الصفا ، ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه ! » وهُرِعَ الناسُ إلى سفح الجبل ، يستخبرون الخبر ، وكانت الأيام أيامَ غاراتٍ قبلية ، وأيام عدوٍّ يكمنُ في الجبال ، ويغيرُ على حين غِرَةٍ من الرجال ، فقال وهم عيون شاخصة ، وآذان صاغية : « أرأيتُم لو أخبرتُكم أن خيلاً بسفح هذا الجبلِ تريدُ أن تغيرَ عليكم ، أصدقتموني ؟ » .

فقالوا : نعم .

فقالَ مشيراً إلى منهج حياتهم الذي آثروه ، وأسباب النكبة التي جمعوها ، واسباب النصر التي ضيَّعوها : « فإنِّي نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديدٍ »[١] .

إنَّ هذا المنهج الذي آثرناه ، وإنَّ حياة المتعة ، والانتهازية ، والأبيقورية ، التي لا تعرف أدباً ، ولا خُلقاً ، ولا تحترم ديناً ، ولا شريعةً ، ولا تراعي مصلحة ، وعاقبة ، وهي أشدُّ خطراً من كلِّ عدوٍّ خارجي ، وما مثلها إلا كمثل سفينة مثقوبة ثقباً واسعاً يدخلُ منه الماء بقوّةٍ وسُرعةٍ ، وركابها الخياليون متغاضون عن هذا الثقب ، متغافلون عن سَدِّه ، متخوِّفون من فريق من القراصنة الموهومين . وهذه الحياة هي التي مهّدت الطريق في القرن الخامس للغارة الصليبية ، وفي القرن السابع للزحف التتري ، وفي القرن الثالث عشر للغزو الأوروبي ، وفي آخر القرن الرابع عشر الذي نعيش فيه للاحتلال الصهيوني .

---

(١) تقدّم تخريجه وشرحه ص١٠٩ .

إنَّها طبيعةُ هذه الحياة التي لا تفارقها ، ولو قامت ألفُ محاولة ، وانعقدت ألفُ محالفة ، وبرزت ألفُ قيادة ؛ لم تنفع مع هذه الحياة الهازلة اللاهية المستخفَّة بأحكام الله ، المعتدية على حدود الله ، المتوكئة على معسكر غربي ، أو شرقي ، وحليف اشتراكي ، أو رأسمالي . إنَّه لا وَزَرَ لنا إلا الإيمان ، والإسلام ، وإلا الصدق ، والإخلاص .

إنَّ وجودَ النفاق في قادة العالم الإسلامي ، وزعمائه ، والتناقض في أقوالهم ، ووجود الجاهليَّة اللاهية ، والاندفاع المتهوِّر إلى الترفيه ، والتسلية ، والتعامي عن الحقائق ، والأخطار المحدقة ، ووجود الأعمال ، والأخلاق المغضِبة لله ، ولرسوله ﷺ ، والمانعة من النصر ، وقلة الغَيْرة على الدين ، والعِرْض ، والشرف ، وحرمات الله ، ومقدَّساته ، والمداهنة لمن حارب الله ، ورسوله ﷺ ، وقاتل أولياءه ، وأنصاره ، وطاردهم ، واضطهد الدين في بلده ، ومركزه ، وتسبَّبَ في ذلِّ الإسلام ، والمسلمين ، والنكبة العظيمة التي لا يوجدُ لها نظير من قرون كثيرة من تاريخ الإسلام ـ وأصرَّ على ذلك ، وافتخر به ، وإشاعة أسباب الفساد ، والتحلل ، والميوعة في الشعوب الإسلامية وبلاد المسلمين ، والتلاعب في أيدي الأجانب ، وأعداء الإسلام في الخارج ، والتودد إليهم ، والانتصار لهم ، بل الغضب ، والحمية لهم ، وتحقيق أغراضهم ، ومخططاتهم بشعورٍ ، وبغير شعور ، وبقصد ، وبغير قصد ، كلُّ ذلك مصدرُ كلِّ شؤمٍ ، وكلِّ خيبةٍ ، وكلِّ

ذلٍّ ، وكل نكبة .

إذاً فلا ينفع شيءٌ ؛ حتى نقومَ بما نستطيعُ من إصلاحات جذرية ، وإزالة أسباب الفساد والميوعة ؛ التي لا يستطيعُ معها أيُّ شعب أن يقاوم العدو ، ويتحمَّل الشدائد ، ويصبر على المكاره ، ويفضِّل الموت على الحياة ، والشرف على الذل ، والهوان . ولا تزالُ إسرائيل ـ الدولة البغيضة ـ عبرةً لنا في صوغ الحياة صياغة جديدة ، وفي الزهد في الملاهي ، وأسباب الترفيه ، والتسلية ، ولا تزال عبرةً في حياة التخشن ، والتقشف ، والاقتصاد في الملابس ، والمطاعم ، وفضول المدنيَّة وحواشيها[١] .

وحسبنا الشعب الصيني الذي تقشَّف في الحياة تقشُّفاً لا مزيد عليه ، وهو يعيش في حالة طوارىء ، وهو أغنى شعب في النفوس ، والمواهب منذ عقود من السنين .

إنَّ الكفَّتين اللتين تملَّكتهما القيادتان المتنافستان في العالم

---

(١) أخبرني بعض الثقات بأنَّه لا يسمحُ لأحدٍ في إسرائيل أن يشتري أكثر من بزتين في السنة ، أما الحرير ؛ فمحرّمٌ على الرجال ، مسموحٌ للنساء فقط ، وقد اندهش اليهودُ من رؤية البذخ ، والرياش الفاخر في المدن العربية التي استولوا عليها ، وقالوا : لو أنَّ أحداً من كُبرائنا فعل هذا لنفيناه . وليس عندهم تلفزيون حتى الآن إلا ساعتين للتثقيف . والتدريبُ العسكريُّ إجباري بين سِنّ ١٨ و٤٥ سنة .

المعاصر كفتان متباينتان كل التباين في الخفَّة ، والرجحان ، فالكفَّة التي تملكها ، وتتزعمها القيادة اللا دينية كفةٌ قد أثقلها تحقيق المطالب الماديَّة ، وإشباع الغريزة الإنسانية ، والإغراءات التي لا قِبَلَ للشابٍّ بها ، والانسياق مع الرغبات ، والانجراف مع الشهوات ، والأساليب الحديثة التي حذقها ، وبرع فيها أدباء هذه البلاد (والتي لا تزال بلادنا العزيزة المقدَّسة متطفِّلة عليها ، تلميذة متواضعة فيها) ، فلو كان الحكم بالمقارنة ، وتكافؤ القوى ، والقلة ، والكثرة ، والضعف ، والقوة ؛ لشالت الكفَّةُ الإسلاميةُ إلى آخر حدٍّ ، ورجحت الكفَّة التي حملتها القيادة التحرريَّة إلى آخر نقطة .

هنالك يعرفُ كلُّ من رُزِقَ البصر ـ فضلًا عن البصيرة ، والفهم السليم ، فضلًا عن الفراسة ، والألمعية ـ : أنَّه لا أملَ لأصحاب الكفَّة الثانية ، كفَّة أنصار الفكرة الإسلامية ، وأولياء الأمور في البلاد التي تقوم على أساس الإسلام إلا في الرجوع إلى الإسلام بالمعنى الصحيح ؛ الذي لا يشوبه شيءٌ من النفاق ، والتدرُّع بالإخلاص ؛ الذي لا يخالطه شيءٌ من الرياء ، وبالإنابة إلى الله إنابةً صادقةً ، لا يمازِجُها شيء من التردد ، والشك ، وصوغ المجتمع ، والحياة صياغةً دينيةً ، لا حظَّ فيها للجاهليَّة ، ولا للحياة التي قضى الله لها بالخذلان ، وبيَّن سخطه عليها في القرآن ، وقصَّ لها القِصصَ ، وضربَ لها الأمثال من حياة الأمم المعذَّبة في القرون الخالية ، ولا للعكوف على الشهوات ، وتحقيق كلِّ ما تطلبه النفس الحيوانية الأمَّارة

بالسوء ، ويزينه الشيطان ، من غير تقيُّد بدين ، وشريعة ، وآداب ، وأخلاق ، ولا للجشع ، والنَّهم للذَّة المنفعة ، والأَثَرَة الفاحشة ، والاكتناز ، والاحتكار ، والترف المجنون على حساب الآخرين ، وبخس حقوق الفقراء ، والتعامي عما يعيشون فيه من فقرٍ مدقعٍ ، وبؤسٍ مُبْكٍ ، وإنزالهم إلى درجة أحطَّ من درجة الحيوانات ، والدواجن ، والقرآن مملوء بهذه الأمثال ، والقصص .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] ، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥٨] .

وقد كان في معركة بدر الحاسمة ؛ التي غيَّرت مجرى التاريخ ، وصاغت العالم صياغةً جديدةً درسٌ لنا معشر المسلمين ، فقد كانت كلُّ القرائن ، والشواهد تدل دلالة واضحة على انتصار المعسكر المكي الزاحف ، الذي كان يقوده أبو جهل ، وأصحابه ، وتغلُّبه على المعسكر الإسلامي الذي كان يقوده محمد ﷺ بحكم جميع المقاييس ؛ التي آمن بها البشر ، والتجارب العسكرية التي سجلت في التاريخ مما يتصل بالعَدَد ، والعُدَد ، والميرة ، والمدد ، وكان لكلِّ ذي بصرٍ أن يتكهَّن بالنتيجة ، ويعلنَ : أنَّ المعسكرَ الزاحف من مكة سيستأصل شأفة اللاجئين إلى المدينة ، وأنصارهم ، ويخمدُ الجذوةَ الأولى من الدعوة الإسلامية إلى آخر الأبد .

وقد عرف ذلك الرسول ﷺ الذي كان حظُّه من معرفة طبائع الأشياء ، وحقائق الأمور أكثرَ من كلِّ أحد ، هنالك وضع في كفته ، وكفة أصحابه السنجَة التي رجَّحتها رجحاناً لو وزن بها العالم كله بما فيه من جيوش ، وعساكر ، وحكومات ، ودول ، ومدنيات ، ومجتمعات ؛ لرجحت ، فربط مصيره ومصيرَ أصحابه بالإيمان ، والعقيدة ، والدعوة ، والرسالة ، فقال : « اللهمَّ إنْ تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لن تعبدَ في الأرض ! »[1] .

وصدَّقه الله تعالىٰ في ذلك ، فلم يكن ذلك فكرةً مرتجلةً ، أو حيلةً مبتدعةً ، أو هتافاً تلتجِىء إليه الحكومات ، أو القيادات في أيام عصيبة من الحروب ، أو الأزمات في حياة الأحزاب ، والقيادة ، ثم تتناساه ، وتتخلَّى عنه ، بل كان تصويراً لواقع ، وإعلاناً لميثاق ، وكانت النتيجة التي ينعم في ظلها العالم الإسلامي من خلافة أبي بكر إلى يوم الناس هذا ، ويأكل المسلمون جميعاً من رِفْدها ، وعلى مائدتها الممدودة من أسوار القسطنطينية إلى جزر المحيط الهندي ، ومن خليج البصرة إلى جبال أطلس .

إنَّ مَثَلَ بلادنا الإسلامية ـ وخصوصاً البلاد التي اكتوت بنار النكبة الأخيرة ، وعارِها ـ كمثل بيتٍ وقع فيه حريقٌ عظيم ، فإنَّه لا يحتاج إلا إلى المطافىء القوية السريعة ، وهذه المطافىء هي محاربة أسباب

---

(١) تقدّم تخريج الحديث ص١٤٢ .

الفساد ، وتنفيذ الإصلاح العام الشامل ، والانطلاق ، وبدء السير بإخلاص ، وعزم في هذا الاتجاه .

ولكنْ لا شيءَ يدلُّ على أنَّ هناك وعياً صحيحاً ، وإقراراً بالخطأ والتقصير ، وقصداً لإصلاحٍ ، وتغييرٍ ، بل كلُّ شيءٍ يدل على أنَّه ليس هناك مع الأسف إلا الإصرار ، والتمادي ، والدفاع عن الموقف الذي وقفناه ، والاستمرار فيه ، بل تدل بعضُ الدلائل والقرائن على أننا بدأنا نمدُّ أيدي الصداقة ، والتودد من جديد إلى القادة الذين جرُّوا علينا هذا الشقاء ، وورَّطوا العالم الإسلاميَّ والعربيَّ في هذه الكوارث التي لا آخرَ لها ، فضلاً عن أولئك الذين يحاربون عنهم بكل حماسة ، وإخلاص ، ويتفانون في حبهم ، والدفاع عنهم ، وتبرير مواقفهم ، وتبرئتهم عن كل خطأ وزلَّةٍ ، وذلك يثير غضب الله ، وسخطه ، ويحرم نصره ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [هود : ١١٣] .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة : ١] .

إنَّ **أول خطوة** إيجابية مباركة : هو الندامةُ ، والاعترافُ بالخطأ ، والإقرارُ بالإخفاقِ ؛ الذي منينا به ؛ وبأننا أخطأنا الطريق .

والخطوة الثانية : إزالةُ أسباب الخذلان ؛ التي تحرم من النصر الإلـٰهي ، والعزة ، والكرامة في الدنيا ، والانتصار في المعركة ، نتبعها تتبعاً أميناً دقيقاً ، ونحكم على أنفسنا بالعدل ، ونتوب إلى الله

توبة نصوحاً ، ونؤمن إيماناً صادقاً بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه .

والخطوة الثالثة : أن نحارب الفساد في كل مجال من مجالات الحياة ، ونزيلَ النفاق من كل شعبة من شعبها ، ومن كل طبقة من طبقات المجتمع ، ونتركَ محاربة الله ، ورسوله ﷺ وإعلانَ الحرب على الإسلام ـ وننتقل من الدعوات ، والفلسفات إلى الأعمال ، والأخلاق ـ وندخل في السلم كافة ، ونعتمد على العمل ، والكفاح ، وقوة الإيمان ، والغَيرة الإسلامية ، والأمور الجدية ، وحياة التقوى ، والتقشف ، والزهد ، والبساطة أكثر مما اعتمدنا على القشور ، والمظاهر ، والأساليب السياسية التقليدية ، والدعايات الفارغة السطحية ، ونبدي سخطنا ، وبراءتنا من القيادات الراعنة ؛ التي ورطتنا في هذا المأزق ؛ الذي لا متقدِّمَ فيه ، ولا متأخِّر .

هو مقتضى الإيمان والعقل السليم ، وشرط الخلاص من الأزمة ، وبدء الانطلاق من جديد ، ودليل على صحة الحواس ، وسلامة العقل ، وحسن القصد ، ووجود الغيرة في النفس .

ألا إننا ـ ونحن أصحابُ الرسالة الأخيرة الخالدة ، وخير أمة أُخرجت للناس ، وورثة تعاليم النبوة ، وأخلاقها ـ أحسن حالاً ، وأشرف مكانة من قوم يونس ، الذين أدركهم الله برحمته في آخر لحظة ، عندما صدَّقت قلوبهم ، وصحَّت توبتهم ، وظهر تضرعهم ، فقال : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨] .

وليس لنا إلا أن نقوِّي صلتنا بهذا الدين ؛ الذي حمَّلنا الله أمانته ، وبهذا الكتاب ؛ الذي أُورثناه ، ونحاربَ الفساد الطارىء الدخيل ، وننفضَ عنا الغبار ؛ الذي طرأ علينا من الخارج ، فنبرزَ أمام الأمم كالذهب الخالص الوهَّاج ؛ الذي التقط من الماء ، والطين ؛ فلا يشك أحد في قيمته ، وأصالته ، وصفاء جوهره ، وكرم معدنه ، وحاجة البشرية إليه :

هِجَانٌ[1] الحيِّ كالذَّهَبِ المُصَفَّى   صبيحــةَ دِيمَــةٍ[2] يجنيــه جــانِ

* * *

(١) امرأة هجان : كريمة .

(٢) الديمة : المطر الذي ليس فيه رعدٌ ، ولا برقٌ .

المحاضرة التاسعة

ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي

أيها السادة[١] ! يسعدني ، ويشرِّفني أن أتحدّثَ عن قضية فلسطين في مثل هذا المكان ، أن أتحدّثَ عن هذه القضية إلى الصفوة المختارة من العالم الإسلامي ؛ التي اجتمعتْ للتفكير فيها ، واتخاذ الخطوات السريعة الحاسمة في شأنها ، وإنِّي أخاطبُ في شخصكم الكريم العالمَ الإسلاميَّ ، وعقلَه الواعي ، وقلبَه النابض ، فاسمحوا لي بالصدق ، والصراحة ، والإيجاز .

إننا اعتمدنا في حلِّ مشكلة فلسطين على العالم الإسلامي ، والوعي الإسلامي أكثر مما اعتمدنا على الحكومات ، والجيوش ، والأسلحة ، ولو ذهبتُ أنقل ما قاله القادة ، والمفكرون ، وما كتبوه في هذه الناحية ؛ لملأ الأسفار ، وهذا موقف يشرِّفنا ، ويبيِّض وجوهنا ، ويرفع رؤوسنا ، فإنَّ الاعتماد على الشعوب ، والجماهير ، وإنَّ الاعتماد على الوعي العالمي ، والشعور اليقظ لم يزل من شأن

(١) محاضرة ألقيت في ٢٦ يونيو (حَزيران) ١٩٥٦م في المؤتمر الإسلامي الثاني في دمشق .

القضايا العادلة ، ومن شأن المظلوم السليب الذي غمط حقه ، من شأن المظلوم الذي يؤمن بأنَّه على حق ، ويؤمن بأنَّ الحق لا يعدم ـ في دور من أدوار التاريخ ـ من يعترف به ، ويغضب له ، وينتصر لصاحبه ، فكان هذا الاعتمادُ إيماناً بالضمير الإنساني ، وإيماناً بالضمير الإسلامي ، وكان إيماناً بأنَّ فلسطين ـ القبلةَ الأولى ، ومسرى الرسول ﷺ ـ ليست لأهل فلسطين ، ولا للعرب فحسب ، بل للمسلمين جميعاً ، والعالم الإسلامي بأجمعه .

وإنَّ العالم الإسلاميَّ الذي يمتد من جزر المحيط الهندي إلى مراكش ، وتكوينه مجموعةً تكاد تكونُ أكبر مجموعة بشرية تلتقي على عقيدة واحدة ، ورسالة واحدة لخليق ـ والله ـ وجدير كل الجدارة بأن يعوَّل عليه ، ويرجع إليه في حلِّ كل مشكلة من مشكلات النوع الإنساني ، وردِّ كل عدوان عن أي أمة من الأمم ، واسترداد كل حق مغتصب ، وانتصاف من كلِّ ظالمٍ عات عنيد ـ فضلاً عن مشكلة واحدة كمشكلة فلسطين ـ فلا عجب إذاً ـ أيها السادة ـ إذا اعتمدنا على هذا العالم الإسلامي في حلِّ مشكلة فلسطين ، وهي مشكلته ، وفي استرداد فلسطين ، وهي حقُّه .

ولكن اسمحوا لي ـ أيها السادة ـ أن أسأل : ماذا تعنون بالعالم الإسلامي ؟ أتعنون به مجموعةً بشريةً تسكنُ في ساحة واسعة ، وتعيش كما تعيش الأمم ، من غيرِ عقيدةٍ ، وخُلقٍ ، وعملٍ ؟

إني أجلُّكم ، وأربأُ بعقولكم الناضجة عن هذا التفكير ، فما صِلةُ

قضية فلسطين ـ وهي قضيةٌ تقوم على العقيدة ، والشعور ، والعاطفة ـ
هذه القطعان البشرية ؛ التي تعيشُ بغير عقيدةٍ ، وغاية ، ورسالة ؟!
وما غَنَاؤها في حلِّ مشكلةٍ كمشكلةِ فلسطين ؟!

إنِّي أسبقكم ، وأقول لسادتكم : إننا إذا اعتمدنا على العالم الإسلامي ؛ فقد اعتمدنا على تلك القوة الكامنة في نفوس هذه الأمة العظيمة ، التي تسكن في هذه المنطقة ، هذه القوة الكامنة التي صنعتِ المعجزات في الماضي ، وجديرة بأن تصنَعها في الحاضر ، هذه القوة التي انتزعت هذه البلاد كلَّها من أيدي الروم الظالمين ، وأفاضت عليها حياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، وضمَّت قُدُساً جديداً إلى قُدُسها القديم ، هذه القوة التي لم تعرف الحذر ، ولم تعرف الهزيمة ، ولم تفهم لغة الأرقام ، ومنطق الأسباب ، والعدد ، هذه القوة التي لا أجد لها تعبيراً في لغات البشر جمعاء أبلغ من (الإيمان) .

إنَّ هذا الإيمان ، وما ينتجه من أسلوب للحياة ، ونوع من الأخلاق هو سمة هذا العالم الإسلامي ، وقوته ، وسلاحه ، وهو القوة الكبرى التي اكتشفها البشر ، وعرفها التاريخ ، وهو القوة التي تخلق الحكومات ، وتخلق الأمم ، هو كالمفتاح لكلِّ قفلٍ من أقفالِ الحياة البشرية ، فإذا اعتمدتم عليه ، فقد اعتمدتم على أكبر قوة يملكها الإنسان ، وإذا وجدتموه فقد ملكتم المفتاح الذين تفتحون به كلَّ قفل .

فهل استعرضتم العالم الإسلاميَّ الذي تعتمدون عليه في حلِّ هذه المشكلة ؟

وهل استعرضتم ـ أيها السادة ـ قوة الإيمان ، والوعي الإسلامي ، التي تعتمدون عليها في تمكن العالم الإسلامي من حل هذه المشكلة ؟ وهل تعرفون ما جدَّ فيه من حوادث ، وتطورات ، وما فعلت به العوامل القوية في الزمن الأخير ؟

إنِّي أخافُ ـ ومعذرتي من هذه الصراحة ومن هذه المرارة ـ : أنكم تتصوَّرون عالماً إسلامياً يعيش في التاريخ أكثرَ مما يعيش في واقع الحياة ، ذلك العالم الجميل الرائع الغيور ؛ الذي لا يظلم ، ولا يسمح بالظلم في أيِّ مكان ، ذلك العالم الذي لا يأخذُ حقَّ غيره ، ولا يتنازل عن حقِّه ، ذلك العالم الذي إذا نادت في ناحية منه عجوز : وامعتصماه ! أجاب المعتصم في ناحية أُخرى : لبيك ! هذا العالم الذي كان يعتبِرُ كلَّ فرد منه نفسَه مسؤولًا عن كل شبر من هذا العالم الواسع ، ويرى هذا العالم الإسلامي على سعته وطناً واحداً ، ويرى هذه الأمة جسداً واحداً ؛ إذا اشتكى منه عضو ؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر ، والحمى ، ذلك العالم الذي كان كلُّ فرد من أفراده يحنُّ إلى الشهادة في سبيل الله ، كما يحنُّ الواحد إلى الحياة .

هذا العالم ـ أيها السادة ـ لا تقع فيه كارثة ككارثة فلسطين ، وإذا وقعت فإنَّها تعالَجُ في أقصر وقت ، وأقرب مدة .

أمّا العالم الإسلامي اليوم فلا تؤاخذوني إذا قلت : إنَّه فقد ـ على حين غفلةٍ من الدُّعاة والمربين ـ شيئاً كثيراً من معنوياته ، والعناصر

التي تكوِّن شخصيته ، وهي :

١ـ الإيمان بالغيب إيماناً يفوقُ إيمانَ الماديين بماديتهم .

٢ـ وإيثارُ آجلِ الآخرةِ على عاجلِ الدنيا .

٣ـ والاستهانة بزخارف الدنيا ، ومتعها .

٤ـ والاستقامة على الحق ، والتفاني في سبيله .

٥ـ والحميَّة الدينيَّة .

فكانت هذه النكسة في النفس هي السبب الحقيقي للنكسة الفظيعة ؛ التي واجهها العالم الإسلامي في جميع ميادين الحياة ، وسبب كل النكبات ؛ التي نكب بها في العصور الأخيرة .

لقد طرقتنا حوادث العصرِ الأخير ، ونحن نتصوَّرُ ذلك العالم الإسلامي الذي كان يعيش في القرون الأولى ، أو يعيشُ في أذهاننا وتصوُّراتنا ، فلجأنا إلى ذلك العالم نطلبُ فيه الحل لهذه المشكلات الطريفة[1] ، ونستمدُّ منه القوة ، والزاد ؛ فإذا بنا نُفاجأ بعالم جديد لا عهد لنا به ، ولا غَنَاء لنا فيه في هذه المشكلات ، وفي هذه النكبات ، فكانت مفاجأةً أليمةً تهزُّ مشاعرنا ، وتبخِّر آمالنا .

واسمحوا لي ـ أيها السادة ـ أن أنقل ما كتبتُه قبلَ عدة سنوات في هذا الموضوع ، ولا أرى أنه يحتاج إلى تعديل :

(١) الطريفة : الجديدة .

« أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر ، وهو مستخفٌّ بهذه القوة المعنوية ، لا يحفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ؛ حتى نضب معينها في قلبه .

فلما خاض العالم الإسلاميُّ المعاركَ التي تحتاج إلى الإيمان ، والصبر ، والثبات ، وتحمُّل الشدائد ، والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف : أنَّه جنى على نفسه جنايةً عظيمةً بإهمال هذه القوة الروحية ، وتضييعها ، وبحث في جعبته ، فلم يجد شيئاً ، ليسد مكانها ، ويغني غناءها .

وخاض العالم الإسلاميُّ معاركَ حاسمةً ، وهو يرى : أنَّ المسلمين لا بد أن يُهرعوا للدفاع عن الإسلام ، وحماية بلادهم المقدسة ، وسيغضبون لله ، ورسوله ﷺ ، وحرماته ، وأن الأقطار الإسلامية ستشتعلُ ناراً ، وتتوقَّد حميةً ، وحماساً ، فإذا الحادث لم يؤثر في المسلمين التأثير المنتظر ، وإذا النصرُ ضئيل ، والسخط خافتٌ ، وإذا المسلمون كعادتهم في غدواتهم ، وروحاتهم ، منهمكين في لذاتهم ، وشهواتهم ، كأن لم يحدث كبيرُ شيءٍ ، فعرفَ : أنَّ الحميةَ الدينية قد ضعفت في المسلمين ، وأن شعلةَ الجهادِ قد انطفأت ، أو كادت ، وهنالك عرف الناسُ ضعفَ العالم الإسلاميِّ ، وخذلانه ، وهوانه على المسلمين أنفسهم » .

وبعد ذلك أقول : إنَّ العالم الإسلاميَّ على ضعفه ، وانحرافه مستعدٌّ كلَّ الاستعداد ليكون ذلك العالم الإسلامي السليم القوي ، الدافق بالحياة ، الذي يصحُّ الاعتماد عليه في حل المشكلات الإنسانية كلِّها ، فضلًا عن مشكلة واحدة ؛ ولو كانت ضخمة معقَّدة ، كمشكلة فلسطين .

إنَّه مستعد ليكونَ ذلك ؛ لأنه لا يزال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنبوة المحمدية ، على صاحبها الصلاة ، والتحيَّة ، إنَّه لا يزال متصلًا بمنبع الحياة ، والقوة ، ومصدر النور ، والفيض ، إنه ليس كالأمم والمجتمعات البشرية ؛ التي انقطعت صلتها بالنبوَّات ، ورسالات السماء ، إنه إذا ذُكِّر ؛ ذكر ، وإذا نُبِّه ؛ انتبه .

هذا العالم الإسلاميُّ ـ أيها السادة ـ في حاجة إلى بعثٍ جديدٍ ، في العقيدة والإيمان ، والأخلاق ، والأعمال ، وبتعبير أدق : إنَّه ليس في حاجة إلى دين جديد ، ولكنَّه في حاجة إلى إيمان جديد بالحقائق الخالدة ، والعقائد الخالدة ، الرسالة الخالدة ، والدين الخالد ، وأنا أحمي سمعي ، وبصري ، ولساني ، وقلمي أن أُسمِّيه القديم ، فإنَّ الدينَ ليس فيه قديم ، ولا جديد ، إنَّه دين واحد ، وإنه دين خالد ، ولكنِّي أُلِحُّ على أن أُسمّي الإيمانَ جديداً ، إنَّ من الإيمان ما هو قديم ، وإنَّ من الإيمان ما هو جديد .

إنَّ قوة الرعيل الأول ، والطراز المتقدم من هذه الأمة في أنه كان يحمِلُ إيماناً جديداً ، فعجزَ الإيمانُ القديمُ الضعيفُ البالي الذي كانت

تحمله بعض الأمم عن مقاومته ، وكان كالشمس الجديدةِ ؛ التي تطلع على العالم ، فتسطع على كل شيء ، وتبهر كل شيء .

إنَّه قد جدَّت فتن ، وجدَّت خطوب ، وجدَّت معارك ، فليتجدَّد الإيمان .

إنَّ هذا العالم الإسلامي يملك أعظمَ ثَروةٍ من الإيمان ، ولكنَّها ثروة دفينة تحتاج إلى إثارة ، واستثمار .

إنَّ الأسس التي تبنى عليها الحياةُ لا تزالُ موجودةً في هذه الأمة ؛ حين فقدتها الأمم الأخرى ، وضيَّعتها ، وهي أسس الإيمان ، فليبنِ عليها البنَّاؤون ، وليقُم عليها صرحُ الإسلام من جديد .

إذاً فالعالم الإسلامي في حاجةٍ إلى تجديد الإيمان ، الإيمان بالله ، والإيمان بالرسالة ، والإيمان باليوم الآخر ، إيماناً حقيقياً لا صورياً ، فإذا تحرك هذا الإيمانُ في النفوس ، وتحوَّل من الصورة إلى الحقيقة ، وشمل الحياة كلَّها ، انحلت كلُّ مشكلةٍ ، وتفتّحَ كلُّ قفلٍ .

إنَّ العالم الإسلاميَّ لا يزالُ مجهولًا ، والناس في هذا الجهل طبقتان :

١ـ فمنهم من يكوِّن له في نفسه صورة يعيش فيها ، **إنَّه يبالغ في حُسن الظن به** ، فيحمِّله ما لا يحمل ، ويطلبُ منه ما لا يملك ، إنّه يرجو الثمرة من غير أن يعتني بالشجرة ، إنَّه يُهمل جانبَ الإيمان ، وجانبَ العقيدة ، ولكنَّه يطلب منه أفعال المؤمنين الصادقين ، ويتوقع

منه أن يظهر منه ما ظهر من الجيل الإسلامي الأول ، وتلاميذ مدرسة الرسول الأعظم ﷺ من روائع البطولة ، وخوارق الجهاد .

٢ـ ومنهم من **يجهل طبيعته ، وعقيدته** ،وتاريخه ، والقوى المودَعة فيه ، والكنوزَ المدفونة في أرضه ، فيعامله معاملة أمة لا تدينُ بدين ، ولا تؤمن برسول ، ولا تحمل كتاباً ، فيعالج مشكلاته كما تعالج مشكلات أمة جاهلية ، ويلتجىء في حل مشكلاته ، وفتح أقفاله ، وعقده إلى كل وسيلة ؛ إلا الدين ، والعقيدة ، وإثارة الإيمان فيه ؛ فكلاهما في تعب ، وصراع .

والواقع : أنَّ العالمَ الإسلامي اليوم ليس في إيمانه ، وصلته بالله كالعالم الإسلاميِّ في العصر الأول ، فلا نطلبُ منه ما يصدر عن إيمان عميق ، متغلغل في الأحشاء ، وليس ـ على عِلَّاته ـ كالأمم الجاهلية ، فتعالج مشكلاته بطرق مادية ، ووسائل صناعية ، **إنَّه مؤمنٌ ، ولكنَّ إيمانَه يحتاجُ إلى تجديد ، وإلى إثارة ، وتحريك ، وإلى تنظيم** .

إنَّ قضية فلسطين كانت سببَ الاتصال بهذا العالم الإسلامي ، وكانت سبب الاطلاع على العالم الإسلامي ، ولا أكون مجازفاً إذا قلت : إنَّها سبب اكتشاف هذا العالم الإسلامي ، فكانت قضيةً مباركةً من هذه الناحية ، فقد عرفنا هذا العالم من جديد ، وعرفنا ما ينقصه ، وما يحتاج إليه .

فلنعملْ على تكوين هذا العالم ، وبعثه من جديد على أساس من

الإيمان ، والخلق ، ولنعرفْ : أنَّ المفتاحَ الذي يفتح هذا القفل ـ وكلَّ قفل من أقفال هذه الأمة ـ هو وجودُ الإيمان القوي ، والوعي الإسلامي الصحيح في الشعوب الإسلامية ، وهو الضامِنُ بالانتصار في معركة فلسطين ، والكافِلُ بالانتصار في كل معركة ، الحافظ من كل خطر ، ومن كل ضيم ، والسبب في كل مجد ، وفي كل سعادة .

فليفكر قادةُ الرأي في العالم الإسلامي ـ وقد اجتمع منهم عدد مشرِّف في هذا المكان ـ ودعاة الإسلام المخلصين ، في بدء هذه الحركة المباركة ، وفتح معسكر الدعوة الإسلامية من جديد ، وتنظيم حملة ـ هي حملة هادئة سلمية مباركة ـ على العالم الإسلامي ، وليعرفوا كيف يزرعون الإيمان ، وكيف يغرسون الإسلام في قلوب المسلمين أنفسهم ، وكيف يشعلون العاطفة الدينية في هذه القلوب الباردة ، والأجساد الهامدة ، وكيف ينشرون الدعوة إلى الله ، ورسوله ﷺ ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى .

ولهذا المؤتمر الإسلامي الكبير أن يبثَّ دعاتَه في العالم الإسلامي ، ينتشرون في أنحاء الأرض ، ويكونون في حركة دائمة ، ونشاط دائم في سبيل الدعوة ، والتذكير ، والتربية الإسلامية ، وبذلك يستطيع المؤتمر بإذن الله أن يحلَّ مشكلة فلسطين ، ويؤمِّن العالم الإسلامي من كل مشكلة جديدة .

***

المحاضرة العاشرة

العاقبة للعرب والمسلمين

لا شك : أنَّ اليهودية العالمية قد نجحت نجاحاً فوق الحساب في تحقيق مراميها ، وأهدافها الكثيرة ؛ التي ظلت آلافاً من السنين تحلُمُ بها ، وفي تطبيق مخططاتها الكثيرة ـ التي كانت تعتبر ضرباً من غرائب الهَوَس ، وطرائف الجنون ـ في سهولةٍ ويسر ، لم يكن يتخيلهما أحد ، لا العرب ، ولا اليهود أنفسهم .

فقامت دولة (إسرائيل) في قلب المنطقة العربية الإسلامية المقدَّسة ، وبقيت جاثمة على صدر العرب ، والمسلمين ، واستطاعت بنفوذ اليهود العالمي ألَّا تحتفظ بكيانها فحسب ، بل لم يزدها الزمانُ إلا قوةً ، واستحكاماً ، ثم استطاعت أن تنتصرَ على أعظم معسكر عربي ، وأضخمه عدة ، وعتاداً ، وأن تحطِّمَ قوته الجويَّة .

وأكثر خطراً من ذلك : أنَّها أضعفت قوّةَ إرادةِ الشعبِ وروحَ مقاومتِه في بضع ساعات في الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧م ، واستولت على القدس ، وعلى الضفة الغربية ، وعلى شبه جزيرة سيناء ، وأصبحت قناة السويس ، وكثير من مدن مصر الساحلية مهدَّدة

معرَّضة للخطر الإسرائيلي ، وتوغَّلت في الأراضي السورية ، واستولت على عدد من المواطن الاستراتيجية المهمة ، واستطاعت أن تضربَ عِدَّة مطارات عربية في جراءة ، ووقاحة .

وهي الآن تحلم بالاستيلاء على هذه المنطقة العربية كلها ، وتتهدد الأماكن المقدسة في قلب الجزيرة ، ويتحدَّثُ بعضُ زعمائها باسترداد ما فقده آباؤهم من حصون ومستعمرات يهودية في الجزيرة العربية ، وجلَوا عنها في المدِّ الإسلامي الأوَّل .

بل يمنِّي اليهود أنفسَهم بأن يصبحوا يوماً من الأيام السطوة العالمية التي تملي أوامرها ، وتفرض إرادتها على الرؤساء ، والوزراء ، والقادة والزعماء في العالم كلِّه ، وتحقق الحلم البعيد الذي سطَّره الربِّيون في التلمود ، وحكماء صهيون في بروتوكولاتهم .

فهل يدوم هذا الوضع ؟ وهل تحقق الصهيونية ما بقي من أحلامها ، ومخططاتها ؟ وهل يُترك العرب ، والمسلمون تحت رحمة هؤلاء الطامحين ؟ وهل يفسح لهم المجال ، ويرخى لهم الحبل حتى يستولوا على العالم كله ؟ ويحققوا أغراضهم وما يدينون به من فلسفات ، وأفكار ، ونظريات ؟ وهل يمنحون القيادة للنوع البشري ، وتتاح لهم الفرصة في توجيهه ، كما أتيحت لرسالات ، وفلسفات ، أو قوىً ، وطاقات ، أو مدنيات ، وحضارات في الزمن السابق ؟

إننا لا نستطيع أن نجيب عن ذلك جواباً حاسماً ، حتى نقف وقفة

قصيرة أمام هذا الكون الفسيح البديع ، وما عرفناه عن خالقه ، ومبدعه ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وإرادته ، وسننه ، وقوانينه ، وأمام التاريخ البشري ، وما وصل إلينا من تجاربه ، وحوادثه .

ولا نستطيعُ أن نحكم في ذلك بشيء ؛ حتى نحكم على السلالة البشرية ، ومدى صلاحيتها ، والطبيعة البشرية ، ونصيب الخير والشر فيها ، ونحكم على مستقبل الجيل البشري ، ومصير هذا العالم .

فإذا قررنا أنَّ خالق هذا الكون الحكيم العليم لم يخلق هذا الكون ، وهذا الكوكب الذي نسكنه إلا للفساد ، والدمار ، والفوضى ، والانحلال ، والظلم ، والقسوة ، والوحشية ، والهمجية ، والمؤامرات ، والدسائس ، ولم يهتم به هذا الاهتمام ـ الذي يتجلَّى في جميع مجالاته ـ من إبداع ، وإتقان ، وحسن ، وجمال ، وترتيب ، وتنسيق ، ويتجلى في إرسال الرسل ، وإنزال الكتب حيناً بعد حين ، وإلهام المصلحين ، ونصر الصالحين الصادقين ، وإدالة الخير من الشر ، وتغليب الصلاح على الفساد جيلًا بعد جيل ؛ إلا ليسيطرَ عليه عنصر ينتمي إلى بعض الأنبياء في أقدم العصور ، وتجري في عروقه قطرات من دمهم ، لا ترى بأدق مكبِّرة بيولوجية ، ولا تحسب بأكبر مهارة رياضية ، ولتهيمن عليه ، وعلى جميع طاقاته ، وذخائره ، وثرواته ، سلالة بشرية واحدة ، هي (شعب الله المختار)

والأسرة الإلـٰهية المقدسة[١] .

وإذا قررنا : أنَّ هذه السلالة البشرية الكريمة هي الخلية البشرية الوحيدة ؛ التي خصّها الله بجميع الطاقات ، وبجميع المواهب ، وقد ارتكزت فيها كلُّ صلاحية ، وكلُّ عبقرية ، وكلُّ إبداع .

أما الخلايا البشرية الأخرى ؛ التي يتكوَّن منها النسل الإنساني الذي يملأ العالم ؛ فهي حثالة كحثالة الشعير ، وبراية كبراية الأقلام ، مجردة عن كلِّ جدارة وصلاحية ، وقدرة على الإبداع ، والإنتاج ، وعن جميع المواهب ، والمنح .

فالعنصرُ اليهوديُّ له وحدَه الحق في السيادة ، والحكم على النوع البشري ، أما سائرُ الناس ؛ فيجبُ أن يُساقوا ، كما تُساق قطعانُ البهائم الحقيرة ، وكل من عدا هؤلاء الأبناء المدلَّلين ، والسعداء الموهوبين ، فقطعُ شطرنج يلعب بها الدهاة اليهود الأكرمون في قدرة ، ومهارة ، ويضربون بعضها ببعض ، ويغلِّبون بعضها على بعض ، ويهزمون بعضها أمام بعض ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً[٢] .

---

(١) وهو ما يحكي القرآن من زعمهم وقولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] ، وأسفار العهد العتيق ، والتلمود مملوءةٌ بهذه المزاعم ، والصفات ، والنعوت ؛ التي لا يتحملها هذا الفصل القصير .

(٢) يسميهم اليهود الأميين ، ويعبرون عن ذلك بكلمة جوييم (Goyem) ، وبكلمة=

وإذا قررنا : أنَّ البشرية ، هي الطبيعة الشريرة ، التي تُفضِّل التدميرَ على البناء ، والإفسادَ على الإصلاح ، وهي متشائمة دائماً ، حاقدة ، ناقمةٌ على العالم أجمع ، ساخطةٌ على الماضي ، والحاضر ، ثائرةٌ موتورة ، تحمل الأحقاد القديمة ، والجديدة ، وتنظر إلى كلِّ قضية ، وحادثة بالمنظار الأسود ، ولا ترى إلا الجانب الضعيف فيما صنع الصانعون ، وبنى البنّاؤون ، وخلَّف المخلَّفون ، متذمرة ، تضيق ذرعاً بكل شيء ، تحتقر غيرَها ، وهي في الحقيقة مصابة بمركب النقص (Inferiority Complex) لا تعرف للسلالة البشرية كرامةً ، ولا للإنسان شرفاً ، ولا تعرفُ غايةً أسمى من المادة ، وتحقيق الرغبات الخسيسة .

تقسو عند الانتصار ، وتجبن عند الهزيمة ، وتستخدم جميع الوسائل للوصول إلى الغاية ، ولا تتورَّعُ عن أخسِّ الأعمال ، وأفحش الظلم ، وأحطِّ الأخلاق ، وأوقح نفاق .

وإذا قررنا : أنَّ العامل البنَّاء الوحيد ، القوي المؤثر في بناء المدنيات ، وصنع التاريخ ، وإسعاد البشرية ، وسياسة الشعوب ، والأمم هو الدهاء الخبيث ، والمهارة الإجرامية ، واللباقة الهادمة المدمرة ، والإفساد بين الناس ، والقضاء على الضمائر ، وفك نظام

= (Centles) ويُراد بها غير اليهود ، ومعناها عندهم : وثنيون ، وكفرة ، راجع معجم (أكسفورد) الإنكليزي .

الأسرة ، وإشاعة الرذيلة ، والانحلال ، وإحداث الأزمات بعد الأزمات ، وأن الوسيلة الأقوى التي سيطرت على مصائر الأمم ، وأعظم حوادث العالم ، وغيرت مجرى التاريخ هي المؤامرات الخفية ، وأن أكبر قوة يُعتمد عليها هي الغدر ، ونكران الجميل ، واللؤم ، والخسة ، وأن الخُلُقَ المحبب إلى الله ، الضامن للغلبة والانتصار ، والعائد على البشرية بالسعادة والهناء هو الكبرياء ، والأَثَرَة(١) .

وإذا قررنا : أنَّ مصير الإنسانية حالِكٌ مظلم ، لا أمل في سعادة ، ولا في أمن ، وسلام ، ولا في إخاء ، ووئام ، وأنَّه لا يزالُ ينتقِلُ من حربٍ إلى حربٍ ، ومن نكبةٍ إلى نكبةٍ ، ومن شؤمٍ إلى شؤمٍ ، ومن ثورةٍ إلى ثورةٍ ؛ حتى ينتهيَ إلى جهنم التي سعَّرتها الأغراضُ المتطاحنة ، والأحقادُ المتواصلة .

وإذا قررنا : أنَّه ليس هنالك قضية رسالة ، وهداية ، وقضية عقائد ومبادىء ، وقضية ضمائر وقلوب ، وقضية أخلاق ، وفضائل ، وقضية دين مختار ، وشريعة مصطفاة ، ومنهج مفصَّل للحياة ، إنَّما

---

(١) ولذلك يصفهم القرآن بـ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وجاء هذا الوصف في سورة الفاتحة [٧] ، التي تتكرر ، وتجب قراءتها في كل صلاة ، لا يتذوق هذه الكلمة البليغة ، ولا يعرف مدى انطباقها على اليهود ؛ إلا من عرف سيرتهم ، والدور الذي لعبوه في تاريخ الإنسانية .

هي قضية سلالة نسب ، ودم وعرق ، وقضية ثارات ، وتِرات ، وأحقاد ، وضغائن ، واسترداد لمجد ضائع ، وأرض مسلوبة ، أو محتلة ، وإشباع لرغبة الطموح ، أو غريزة الاستيلاء ، وطبيعة الجشع .

إذا قرّرنا ذلك كله ؛ فلا شكَّ : أنَّ اليهودَ هم المرشَّحون ، المهيَّئون للسيادة ، والغلبة ، وأنَّ هذا الوضعَ سيظلُّ ، ويدوم ، وأنَّه لا يعوِقُم عن توسعهم في الحدود ، والامتلاك ، والاحتلال ، وعن تحقيق مخططاتهم شيءٌ .

هذه هي الصورة الحقيقية لليهود ؛ التي رأيناها فيما عندنا من أسفار (العهد القديم) ، وفي صحف (التلمود) ، وفي (بروتوكولات حكماء صهيون) وفي ما وصل إلينا من خطب زعمائهم ، ومحاضر جلساتهم السرية ، وفيما تحقق من أعمالهم ، وإجراءاتهم منذ استولوا على القدس ، وعلى المدن الإسلامية العربية .

وهي صورةُ الحقدِ ، والاحتقارِ ، والنقمة ، والسخط على البشرية ، وتقديس العنصر اليهودي ، والدم الإسرائيلي إلى حدِّ التأليه ، وتجريد السلالة البشرية الباقية في جميع أدوار التاريخ ، وفي جميع أنحاء العالم عن كلِّ جدارة وصلاحية ، والتصميم على الاستيلاء على العالم كلِّه ، لمصلحة اليهود وحدهم ، والبغضاء المتأصلة في النفوس ، والضراوة بالشر والفساد كطبيعة أصيلة ، والعنف ، والعناد

كأخلاق قومية ، وعادات موروثة ، وهي الصورةُ التي تقترنُ بتاريخهم اقترانَ المزاجِ بالإنسان ، وترافقهم مرافقةَ الظلِّ .

فالمؤامرة قوامُ تاريخهم ، وعماد حياتهم ، والقطب الذي يدور حوله نشاطُهم ، وذكاؤهم ، وهم الرأس المفكر ، والعقل المدبر ، والإصبع المحرك في كلِّ ثورة ، وفي كلِّ مؤامرة ، وفي كلِّ مذهب هدَّام ، وفي كلِّ فلسفةٍ مدمِّرة ، وفي كلِّ قلق يسود ، وفي كلِّ أزمة تحدث اقتصادية كانت ، أو سياسية ، واجتماعية كانت ، أو خلقية . ولا أبلغ ، ولا أدل من كلمة نابغتهم (الدكتور أوسكار ليفي) في وصفه شعبه : « نحن اليهود لسنا إلا سادةَ العالم ، ومفسديه ، ومحرِّكي الفتنِ فيه ، وجلاديه ! » .

وليست لليهود ـ ولم تكن في أي دور من أدوار حياتهم ـ أي رسالة عالمية ، وطبيعة الرسالة العالمية لا تتفق مع تقديس العنصر ، والدم ، والغلوِّ في تعظيم سلالة واحدة ، واعتقاد كل نزاهة ، وجدارة وصلاحية للتقدم الروحي ، والسمو النفسي ، والقرب من الله تعالىٰ في نسلٍ واحدٍ ، وأَرومةٍ واحدةٍ ، وعدم الاقتناع بعقيدة المساواة البشرية ، ووحدة الأصل ، والجنس في بني آدم ، وتكافئهم في فرص الرقي ، والتقدم ، والطهارة ، والنزاهة ، وبلوغ أعلى درجات الإيمان ، والإحسان ، والرحمة ، والرضوان .

فطبيعة تقديس العنصر ، والدم ، وحصر النجابة ، والنبوغ ، والعبقرية ، والعظمة ، والاختصاص بخالق هذا الكون تعارِضُ كلَّ

المعارضةِ العطفَ على النسل الإنساني ، والحماسة في نقل أفضل ما عندها من رسالة ، وسعادة إلى باقي البشر ، وسائر بني آدم ، وإشراكهم فيما عندها من علم ثابت ، وعمل صالح ، وأخلاق كريمة .

بل إنَّ هذه الطبيعة تجنَحُ بطبيعة الحال إلى تضييق دائرة الهداية ، والدعوة ، وتحديدها في عنصر واحد ، وفي سلالة واحدة ، لذلك كان من الطبيعي : أن الديانة اليهودية لم تكن في زمنٍ من الأزمانِ دعوةً عامةً للخلق ، ولم يكلَّف اليهود ـ في ضوء من نصوص كتبهم المقدسة ـ بتبليغ الرسالة إلى الأمم جميعاً[1] ، بل وردت نصوصٌ تمنع من ذلك ، وتحصِرُ نشاطهم الدَّعَوي في نطاقهم العنصري المحدود .

وكان من الطبيعيِّ ، والمعقول جداً أن يميزوا دائماً بين بني إسرائيل وبين الشعوب ، والقبائل الأخرى ، وأن يضعوا للخير ،

---

(١) تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة (Margaret Marcus) اليهودية سابقاً في كتابها (الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً) باللغة الإنكليزية : « إنَّ اليهود ليسوا فقط لا يبلِّغون دينهم إلى غيرهم عملياً ، بل إنّهم لا يرحبون بالدخول في ديانتهم ، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غيرُ اليهود في اليهودية في عدد كبير ، كان ذلك مرةً في اليمن ، في زمنٍ سبقَ البعثة المحمدية ببضعة قرون ، ومرة ثانية حين اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة الخزر التترية الأصل ، التي عاشت مدة قصيرة في روسية » . Isslam Versus ahl alkitab past and present: 22-23

والشـرِّ ، والبـرِّ ، والإثـم مقـاييـس مختلفـة ، تختلـف بـاختـلاف السلالات ، والشعوب ، وألا يتحرَّجوا من أكبر إجرامٍ ، أو عدوانٍ مع شعبٍ آخر . وذلك ما أخبر به القرآن عنهم ، فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . [آل عمران : ٧٥] .

ومن الطبيعي ، والمعقول جداً أن تتعرّضَ جميعُ الشعوب ، والسلالات ؛ التي يحكمها اليهود لكلِّ اضطهاد ، وعسف ، وبخس نصيب ، وتطفيف كيل ؛ لأنهم لا ينظرون إليها كأسرة إنسانية زميلة ، أو سلالةٍ بشرية شريفة ، وإنّما هي قطيع من الغنم ، أو مجموعة من عجماوات ، أو جمادات ، خلقها الخالق لتكونَ آلةً صمّاءَ في يد أبنائه المدلَّلين(١) .

إذاً فالفطرة السليمةالتي أودعها الله في غالب البشر ، وما تحدثت الأديان ، والشرائع ، والكتب المنزلة عن عدل الله ، ورحمته ، وحكمته ، وإرادته من صنع هذا الكون ـ الفسيح البديع المنظم المنسق ـ وخلقه للجيل البشري ، واستخلافه ، وتكريمه ، وما أودع في

(١) وهي نفس النظرة التي ينظر بها البراهمة ، والفاتحون من الآريين في الهند إلى سكان هذه البلاد القدماء ، وعليه تأسّسَ نظامُ الطبقات في الديانة البرهمية وفي المجتمع الهندي ، ولا يزالُ هو النظام المتبع رغم جهود المصلحين الثائرين منهم .

الأشياء من طبائع ، وما وضع لنهضة الأمم ، وانحطاطها ، وقيام الحكومات ، وسقوطها ، وازدهار الديانات ، وذبولها من سنن ، وقوانين ، وما تحقق عند جميع الأديان ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، من أنه ليس ربَّ سلالةٍ ، ونسل ، وربَّ أسرةٍ وبيتٍ ، ورب بيت وإقليم ، بل هو إلـٰه الجميع ، وربُّ العالمين ، وربُّ المشارق ، والمغارب .

وما ثبت في التاريخ الإنساني من أنَّ الشعوب ، والأمم إنما تحيى بالرسالات ، التي تحتضنها ، والغايات التي تدعو إليها ، والفضائل التي تكافح في سبيلها ، وما تحمل من إفادة ، ونافعية ، وغَنَاء للجميع ، وما نبَّه عليه القرآن الحكيم بقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

إنَّ كلَّ ذلك يحتِّمُ : أن اليهود ؛ الذين يتحدَّون هذه الحقائق ، وهذه الطبائع ، وهذه السنن ، والقوانين ، والغايات الكريمة ؛ التي خلق الله لها هذا الكون ، وأوجد لها هذا الجيل البشري ، وما يحبه من الخير ، والصلاح ، ومن العمران ، والبقاء ، لا يمتَّعون بفترة طويلة من السيادة ، والسيطرة ، والغلبة ، والقوة ، ولا يمكَّنون من تحقيق جميع آمالهم ، وأحلامهم ، ومشاريعهم ، ومخططاتهم الهادمة المدمِّرة ، ومطامع الأنانيَّة السلبية ، ولو أيدتهم ألف حكومة ، وكانت من ورائهم القوى الكبرى كلُّها في العالم ، ولو توفرت عندهم كلُّ الوسائل الجهنميَّة التي اكتشفها المكتشفون في هذا العصر ، والتي برع

فيها اليهودُ براعةً ممتازة(١) .

وسينتصرُ أهل الحق ، وحملة الرسالة العالمية الخالدة ؛ التي تعطف على الإنسانية كلها ، وتساوي بين الشعوب والأمم ، وتنتصر للحقِّ أينما كان ، وتحارب الظلمَ أينما وجد ، يعيشون للإنسانية وبالإنسانية ، ولا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً .

وقد كان للدَّهاء ، والمكر ، والخديعة ، والذكاء الذي لا يقوم على احترام الإنسانية ، ولا يقفُ عند الحدود العقلية ، والخُلقية ، والذي يتَّجه دائماً إلى الأنانية السلبية انتصاراتٌ بهرت العقولَ ،

---

(١) أخبرت الأحاديث النبوية التي كادت تبلغُ حدَّ التواتر بأنَّ اليهود يبلغون في زمن من الأزمان الذروة في القوة ، والسيطرة في فلسطين ، وينهضُ فيهم الدجال الأكبر ، الذي يتزعم هذه القوة ، ويتصرف في الأشياء ، وأنهم سيجتمعون في مكان واحد ، ثم يتسلَّط عليهم المسلمون ، ويضعون فيهم السيف ، ويعاديهم كلُّ شيءٍ ؛ حتى ينمَّ عنهم الحجر ، وبقي علماء السنة أكثر من ثلاثة عشر قرناً يتدارسون هذه الأحاديث في (كتاب الفتن والملاحم) وأبواب (أشراط الساعة) في كتب الحديث ، وهي من أبعد الأشياء في الخيال عن عالم الأسباب ، والواقع ، فاليهود ـ طوال هذه المدة ـ أذلاء مشتتون في الآفاق ، حتى بدأت هذه النبوءة تتحقق في منتصف هذا القرن المسيحي الحاضر ، فنشأت فكرة وطن اليهود ، وقامت إسرائيل ، وحدث ما حدث ، وستحقق أواخر هذه النبوءة كما تحقَّقَت أوائلها ، وهي من المعجزات النبوية التي تجلى بعضها ، وتبينت كالصبح ، وسيتجلى الباقي . ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

والألبابَ ، وغشَت على العيون ، والأبصار ، وشكّكت في التاريخ البشري ، وكادت تفقد الثقة بقوَّة الحق ، وحُسن العاقبة للصادقين المتقين .

وكانت لهذه القوة التخريبية الماكرة جولات ، وصولات في التاريخ ؛ حتى تحركت الجبال الراسيات ، واضطرب رجال الفلسفات ، وعلماء الديانات . وقد صور القرآن بإعجازٍ هذه الساعات الدقيقة العصيبة ، وما ينتابُ العقولَ ، والقلوبَ في ذلك الوقت من حيرةٍ ، واضطراب ، وشك ، وارتياب ، ولا تصويرَ أبلغُ من تصوير القرآن : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] ، وقوله : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١٠ ـ ١١] .

وقد عالج القرآن هذه النفسية الإنسانية التي تخضع للغلبة ، والقوة مهما كانت عارضةً مؤقتةً ، ومهما كانت سخيفةً هازلةً ، فقال : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ ـ ١٩٧] ، وقال : ﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [غافر : ٤] .

وعالج كذلك النفسية الضعيفة ، التي تستسلم دائماً لدهاء دقيق ، ومكرٍ مُحكم ، أو مؤامرة ناجحة ، فذكر مراراً ، وتكراراً : أنَّ مصيرها

إلى الانهيار ، والافتضاح ، والخيبة ، والإخفاق ، وأنَّه كنسج العنكبوت : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت : ٤١] .

وقرَّر : أنَّ الخير لا ينتجُ من الشر ، وما كان أساسه ضعيفاً متداعياً للسقوط ، ولم يكن له أصل ثابت ، ولا جذور عميقة ـ في الأرض الكريمة ، أو الفطرة السليمة ـ يكون البناء الذي يقوم عليه مستعدّاً للانهيار في كل لحظة ، فقال : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٩] .

وقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٦] .

وقال على لسان نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ مخاطباً لجماعة السحرة ، قال : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] .

وقال يتحدّث عن المكر ، والدهاء في مختلف الأزمنة ، والأمكنة كقانون عامٍّ خالد : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وأعلن حقيقةً عالميةً لا تختلفُ باختلاف الزمان ، والمكان ،

والشعوب ، والأوطان ، ومظاهر الفوز ، والخسران ، والسعادة ، والحرمان ، فقال ـ غير مبالٍ بما يعتقده البشر من نجاح الحكّام ، والملوك ، والطامحين المغامرين في عصرهم ـ : ﴿ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] ، وقال : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

وبالعكس من ذلك فالعرب ـ رغم جميع العلل ، ومواضع الضعف ، والطوارىء ؛ التي تحدّثنا عنها في مقالاتنا ، ومحاضراتنا السابقة في صراحةٍ ليست فوقها صراحة ـ ما زالوا ، ولا يزالون أصحابَ دعوةٍ إنسانية عامة ، ورسالة عالمية آفاقية ، والدينُ الإسلامي ؛ الذي أكرمهم الله بالسبق فيه ، والدعوة إليه حقٌّ مشاعٌ ، وثروةٌ مشتركة لجميع الأمم ، والشعوب ، والعناصر ، والأجناس ، والأسر ، والبيوتات ، والبلاد ، والأوطان ، ليسَ فيه احتكارٌ مثل احتكارِ (بني لاوي) من اليهود أو (البراهمة) من الهنود ، ولا يتميَّزُ فيه شعب عن شعبٍ ، ولا نسلٌ عن نسلٍ ، وليس الاعتماد فيه على العرق ، والدم ، بل الاعتماد فيه على الحرص ، والشوق ، وحسن التلقي ، وزيادة التقدير ، والتفوُّق في الجهاد ، والاجتهاد ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ : أنه قال : « لو كان العلمُ بالثريا لتناوله أناسٌ من أبناءِ فارِسَ »[1] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٩٦ [ورواه مسلم ، رقم (٢٥٤٦) بلفظ : « لو كان=

وقد دان العربُ في جميع عصورهم لكلٍّ من برز في العلوم الدينية ، وتفوَّق فيها ، وأقروا لهم بالإمامة ، والزعامة فيها ، وخلعوا عليهم من النعوت ، والألقاب ما لم يخلعوها على كثيرٍ ممن برع في هذه العلوم من العرب ، فلقَّبوا الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه الجُعْفي البخاري ، صاحب (الجامع الصحيح) (م٢٥٦هـ) بأمير المؤمنين في الحديث ، وقالوا عن كتابه : إنَّه أصح كتاب بعد كتاب الله . ولقَّبوا الإمام أبا المعالي عبد الملك الجُوَيني النيسابوري[1] (م٤٧٨هـ) بإمام الحرمين . ولقَّبوا الإمام أبا حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي[2] (م٥٠٥هـ) بحجَّة الإسلام .

وقد كان الموالي ، وأبناء العجم هم زعماء العلم ومراجع المسلمين في جميع عواصم المملكة الإسلامية الواسعة في آخر القرن الأول الهجري ، قد انتهت إليهم رئاسة العلم ، والفتيا ، والفقه ، والحديث ، وهي قصة معروفةٌ في جميع كتب الطبقات ، والسِّير ، والتراجم وتاريخ الحضارة الإسلامية .

= الدين عند الثريا ؛ لذهب به رجل من فارس ـ أو قال ـ من أبناء فارس حتى يتناوله »] .

(١) شيخ الشافعية في بلاد ما وراء النهر ، صاحب المصنفات الفقهية العظيمة ، أشهر كتبه : (نهاية المطلب في معرفة المذهب) في الفقه ، و(البرهان في أصول الفقه) ، و(الشامل في علم الكلام) ، وهو شيخ الإمام الغزالي .

(٢) تقدمت ترجمته ص(٩٠) .

واطَّرد ذلك في العصور الإسلامية الذهبية التي ساد فيها العرب ، حتى قال نابغةُ العرب العلاَّمة عبد الرحمن بن خلدون المغربي (م٨٠٨هـ) : « من الغريبِ الواقعِ : أنَّ حَمَلة العلم في الملَّة الإسلامية أكثرُهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، مع أنَّ الملة عربية وصاحب شريعتها عربي . . . فكان صاحبُ صناعة النحو سيبويه[١] ، والفارسي[٢] من بعده ، والزجَّاج[٣] من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم ، وكذا حَمَلة الحديث ، وعلماء أصول الفقه ، وحَمَلة علم الكلام ، وأكثر المفسرين »[٤] .

والعرب بفطرتهم التي فطرهم الله عليها من أقرب الأمم والشعوب

---

(١) هو إمام النحاة عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر الحارث مولاهم ، ولد سنة (١٤٨هـ) ، وهو صاحب (الكتاب) في العربية الذي لا يلحق شأوه ، وشرحه أئمة النحاة بعده ، فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا درره ، ولم يبلغوا إلى قعره ، توفي سنة (١٨٠هـ) وله اثنتان وثلاثون سنة .

(٢) تقدمت ترجمته ص(٨٨) .

(٣) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق من علماء العربية وتلميذ المبرد ، ولد سنة ٢٤١هـ ، وكان فاضلاً ديناً حسن الاعتقاد ، له تصانيف معتبرة أشهرها (معاني القرآن) ، أخذ عنه أبو علي الفارسي النحوي ، والزجاجي . توفي سنة ٣١١هـ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية المصرية ، ص٤٠١ .

إلى قبول مبدأ المساواة الإنسانية ، واحترام النوع البشري ، وأنشطها في تطبيق هذا المبدأ ، والعمل به ، قد حملوه معهم في فتوحهم الواسعة ، وفي زحفهم المبارك ؛ الذي فتح للعالم آفاقاً جديدةً في العلم ، والمدنية ، والفضيلة ، والتقوى ؛ حتى أحبتهم الشعوبُ المفتوحةُ ـ وقد عرفت في التجربة ، وبداهة العقل ببغض الفاتحين ـ وغلا بعض الغلاة الوثنيين من مشركي السند ، والملتان في شبه القارة الهندية في القرن الأول الإسلاميّ ، فصنعت لمحمد بن القاسم الثقفي ، الفاتح العربي تماثيل ، أضافتها إلى تماثيلها القديمة حُبّاً ، وإجلالًا .

وأسلم أهل سمرقند البوذيون على بكرة أبيهم ؛ لما رأوا من معاملة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وعدل المسلمين[١] (بخلاف البلاد التي فتحها غيرُ العرب) ودخلت البلاد المفتوحة قاطبة في الإسلام ، واعتنقت الحضارةَ الإسلاميةَ ، وتكلَّمت باللغة العربية ، وفضَّلت الفاتحين الأجانب ، وما حملوه معهم من أخلاق ، وعادات ، وشرائع ، وقوانين ، ولغات ، ولهجات ، على ما توارثتها من أحقاب طويلة ، وأجيال متواصلة ، وتكوَّن منها هذا العالم العربي الذي نتحدث عنه ، ولا تزال كلمةُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ التي قالها لأحدِ قادته الكبار[٢] ، يتردد صداها في الآذان ،

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري .
(٢) لأمير مصر عمرو بن العاص ، رضي الله عنه .

والقلوب ، وفي صفحات التاريخ : « متى استعبدتم الناسَ ؛ وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!» .

وقد كانوا في جاهليتهم ، وفي إسلامهم من أبعدِ الأممِ ـ بحكم الفطرة ، والنشأة ، والمثل العليا التي كانوا يدينون بها ـ عن طبيعة المؤامرات ، والتكتُّم ، والسرية ، والدسيسة ، والنفاق ، فكانوا أعداءً جهاراً ، وعلانية ، وكانوا أصدقاءً جهاراً ، وعلانية ، وكانوا إذا حاربوا ؛ حاربوا في الميدان ، وإذا صالحوا ؛ صالحوا عن إعلان ، دلَّ على ذلك شعرُهم ، وأدبُهم ، ووصاياهم ، وحكمهم ، وأمثالهم ، وأيامهم في الجاهلية ، والإسلام ، ولم يكنِ النفاقُ من طبيعتهم الأصيلة ، ولذلك يكاد المفسرون يتفقون على أنَّه لا نفاق في مكة ؛ لأنَّها بيئة عربية خالصة ، لا تشوبها شوائب اليهودية ، والعناصر الدخيلة ، وعلى أنَّ جميع الآيات التي جاء فيها ذكر النفاق ، والمنافقين مدنية[1] ، وقد استدل لذلك بعض المفسرين ، والأصوليين بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة : ١٠١] .

---

(١) سبق لكاتب هذه السطور ، مقال في هذا الموضوع نشرته صحيفة (الفتح) الغراء لصاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٩٣٢م أو ١٩٣٣م . وانظر السيرة النبوية للمؤلف ، فصل : ظهور النفاق والمنافقين في المدينة ، ص٢٠٢ ، ط . دار ابن كثير .

فلا خطر على العالم ، وعلى الرقعة التي يحكمها العرب ، وعلى الشعوب والأمم التي يقودونها ، وعلى المدنيَّات والمؤسسات ؛ التي يوجِّهونها ، وعلى السياسة التي يلعبون فيها الدور الحاسم من مؤامرة سرية ، ومن دسائس خفية ، ومن النفاق في الأخلاق ، ومن الإفساد بين الطوائف ، والطبقات ، ومن خلق المشاكل ، والأزمات ، لمصلحة قومية أنانية : فردية ، أو جماعية ، إنما هي قيادةٌ واضحةٌ حاسمةٌ ، وسياسةٌ ظاهرها ، وباطنُها سواءٌ ، وحكم يعدل مع القريب ، والبعيد ، والشرقي ، والغربي ، والعجمي ، والعربي .

أما هذه القومية المتطرفة ، والعصبية الجاهلية ، التي ابتليت بها بعضُ الجماعات العربية ، وتزعمتها بعضُ القيادات في العهد الأخير لأسبابٍ ليس هذا محلُّ شرحها ؛ فهي طارئة دخيلة ، لا تنسجم مع الطبيعة العربية الإسلامية الأصيلة ، وهي تثورُ عليها في أول فرصة ، وتعود إلى أصالتها القديمة ، وإلى إيمانها الذي امتزجَ بلحمها ، ودمها ، وتغلغل في أحشائها ، بقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وبقول الرسول الأعظم ﷺ : « . . . الناسُ بنو آدم ، وآدم خُلِقَ من ترابٍ ، لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقوى »[(١)] .

وإذا كان الإسلامُ رسالةَ الله الأخيرة الخالدة ؛ التي تكفَّل الله

---

(١) رواه الترمذي ، وغيره عن النبي ﷺ .

بقائها ، وخلودِها ، وإذا كان القرآنُ هو الكتابُ السماويُّ الأخيرُ الخالدُ ؛ الذي تكلفَّل الله ببقائه ، وحفظه ، ولا بقاءَ للإسلام ، ولا المسلمين ـ كأمة ذات عقيدة ، وشخصية ، وقانون ، وشريعة ، ودعوة ، ورسالة ـ بغيره ، وكلُّ ذلك مكفولٌ مضمونٌ ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

كان بقاء العرب مضموناً مكفولًا كذلك ، فلا بقاء للقرآن بغير اللغة العربية ، ولا بقاء للُّغة العربية بغير أهلها ، فإنَّ كلَّ ذلك لا يقومُ في الفضاء ، وليس من المعقول ، ولا مِنَ اللائق بحكمة الله تعالىٰ أن يبقى هذا الكتابُ الخالدُ العالميُّ لغزاً لا يفهمه أحدٌ ، أو مختوما لا يستطيعُ أحدٌ أن يفضَّ هذا الخاتم ، ويستفيدَ منه ، أو يبقى أثراً تاريخياً في المتاحف ، والمستودعات ، قد اندرست لغته كما اندرست الهيروغليفية ، أو الفينيقية ، أو الحميرية ، وتعالىٰ الله عن أن يسمِّي ذلك حِفظاً ، وصيانةً ، وفضلًا ، وكرامةً ، ويمنَّ بها على هذه الأمة ، وعلى الأنسانية ؛ التي لا تزالُ تستمدُّ منه القوةَ ، والحيوية ، وتسيرُ في ضوئه في كلِّ عصر ، وجيل .

وليس من الحكمة أن يعيشَ العربُ مستعبَدِين ، أذلاء ، صاغرين ، ويفقدون كلَّ حَوْل ، وطَوْلٍ ، وكلَّ وسيلةٍ لتوجيه البشرية ، وقيادة الإنسانية ، وتصبح هذه المنطقة ؛ التي أشرقت منها شمسُ الإسلام ، وانطلقت منها موجةُ المد الإسلامي في الآفاق ، وارتبطَ بها تاريخُ الإسلام ، والمسلمين ، هذا الارتباطَ الوثيق ؛ الذي

لا مثيلَ له في تاريخ الدِّيانات ، وفيها هذا البيت العتيقُ الذي جعله الله مثابةً للناس ، وأمناً ، ومراحَ الأرواح ، ومهوى الأفئدةِ ، ومدينةُ الرسول ﷺ التي هي مهبط الوحي ، وظئرُ[1] الإسلام ، ومصنعُ التاريخ .

فلا بقاءَ للإسلام ، والمسلمين ـ ولو قامت لهم ألفُ دولة ، وارتفعَ لهم ألفُ علمٍ ـ ولا شرفَ لهم ، ولا كرامةَ ، ولا هدوءَ ، ولا راحةَ إذا ذَلَّ العرب ، وفقدوا هذه المنطقة التي فيها مقدَّساتهم ، وهي معقل الإسلام ، ومصدره ، ومأرزه ، ولذلك جاء في بعض كلماتٍ مأثورةٍ : « إذا ذَلَّ العربُ ؛ ذَلَّ الإسلام » .

ولذلك كانت هذه الأوضاع غيرَ الطبيعية غيرَ صالحةٍ للبقاء ، والاستمرار تعارِضُها الفطرة البشرية ، والعقل المستقيم ، والمنطق السليم ، وطبائع الأشياء ، والحقائق الراهنة ، والظروف المحيطة ، والنصوص الدينية ، والوعود الإلـٰهية ، والتاريخ ، والجغرافية ، والسياسة الحكيمة ؛ التي لم تفقد رشدَها ، ولم يُجنَّ جنونها[2] . وإذا

(١) ظئر : حصن .

(٢) أما السياسة الخرقاء العمياء ؛ التي تتبعها أمريكة ، وروسية إزاء العرب ، فهي سياسة تقليدية خالية من كلِّ ذكاء ، وابتكار ، وجرأة خلقية ، أو حياء وإنسانية ، خاضعة للنفوذ اليهودي ، ومؤسسة على (السكرتارية) الغبية ، والأوراق ، والملفات القديمة ، غير مبنية على الحقائق ، ومثل هذه السياسة ، والاتجاهات لا تنشأ إلا عندما يُصيب الحكومات الهرم ، والشيخوخة ، ويدق أبوابها الزوال القريب .

بقيت مدة قصيرة ؛ فهي مدة طويلة بالنسبة إلى حكم الوضع ، وطبيعة الأشياء ، وبداهة العقل .

وبعد : فإنَّ انتصارَ الصهيونية في هذه الفترة التي يمرُّ بها العالم العربي ، والإسلامي الآن ، وتحقيقَ بعض أهدافها ، ومخططاتها في الاستيلاء على هذه المنطقة العربية الإسلامية لم يكن انتصارَ رسالةٍ على رسالةٍ ، ولا انتصارَ أمةٍ على أمةٍ ، ولا انتصارَ دينٍ على دينٍ ، ولا انتصارَ حقٍّ على باطلٍ ، فإنَّ اليهودَ ليست لهم أيُّ رسالة في هذا العصر ، ولم تكن هنالك معركة بين اليهود ، والأمة الإسلامية ، أو الشعوب العربية ، فإنَّه لم يسمح لهذه الأمة ، ولا لهذه الشعوب أن تخوضَ هذه المعركة ، وتبرز جدارتها ، وكوامنها ، ولم يسمح للإسلام بالخوض في حرب حزيران سنة ١٩٦٧م ، بل عُزِلَ عن الميدان ، وأُقصيَ عن ساحة الحرب بتصميم ، وإرادة .

إنَّ جُلَّ ما هنالك : أنَّه انتصارُ أقدرِ قيادةٍ على أخيبِ قيادةٍ ، وقد كان من سعادة اليهود أن تهيَّأتْ لهم قيادةٌ بعد آلاف السنين ، غسلت عنهم العار الذي رافقهم عبر القرون ، وفي رحلتهم الطويلة ، وصنعت لهم تاريخاً جديداً ، وكان من نكبة المسلمين ، والعرب أن ابتلوا ـ لأسبابٍ شرحناها في الفصول الأولى من هذا الكتاب ـ بقيادةٍ جنت عليهم ، وعلى تاريخنا الجناية الكبيرة ، وورطتهم في مأزق لا متقدِّم فيه ، ولا متأخّر .

ولكن قضية القيادة ، وأخطائها ، وجناياتها مهما طالت ؛ فهي

قضية سهلة يمكن أن تعالجَ ، أما قضية الرسالات ، وقضية جدارة الأمم ، وصلاحيتها للبقاء ، واستحقاقها للنصر ؛ فقضيةٌ عسيرةٌ معقَّدةٌ ، فلا يسهلُ إبدالُ رسالةٍ برسالةٍ ، ولا يسهلُ نفخُ روحٍ في جثةٍ هامدةٍ .

والأمة العربية الإسلامية لا تحتاج إلى رسالة جديدة ، ولا إلى دين جديد ، ولا إلى بعث ، وإحياء ، فإنَّها هي الأمةُ الزاخرةُ بالحيوية ، والقوة ، المستعدَّة للانتفاض في كلِّ وقتٍ .

أما القيادات ؛ فهي كأمواج نهرٍ دافقٍ جارٍ ، تأتي ، وتذهب ، وتغدو ، وتروح ، وترفعُ رأسها ، وتثبتُ وجودها ، وقد تغرقُ بعض السفن ، وتتحطم بعض القوارب ، ولكنها تغيبُ في وجود النهرِ الخالدِ الكبيرِ ، وتتوارى في هذا الخضمِّ المائج ، والنهر هو النهر ، لا يفقد اسمه ، ولا وجوده ، ولا شخصيته .

وقد شهد التاريخُ الإسلاميُّ أمواجاً من هذا النوع ، ارتفعت ؛ حتى وصلت إلى عَنانِ السماء ، ثم نامت في مهد هذا البحر اللُّجيِّ ، وفي أعماقه ، فقامت حكومات ، وطويت حكومات ، وجاءت قيادات ، وذهبت قيادات ، والإسلامُ هو الإسلامُ ، والأمةُ هي الأمةُ ، والرسالةُ هي الرسالةُ ، والكتابُ هو الكتابُ ، والإيمانُ هو الإيمان .

وهكذا النكبات ، والكوارث ، وحوادث التراجع ، والانتكاس تجاربُ طبيعية ، تمرُّ بها الأمم الحية النامية ، الدافقة بالحياة ، ومحنٌ

تُمحَّصُ بها ، وتُصهَرُ ؛ لتبلغَ النضجَ ، والاكتمالَ ، وتتعوَّدَ اليسر ، والعسر ، والسَّراء ، والضراء ، ولا تبطر عند الفتح ، ولا تيأس عند الهزيمة : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] ، كالجسم الحي النامي ؛ الذي لا يعتمد على حيويته ، وقوة مقاومته ، حتى يمرَّ بمراحل مختلفة من الصحة ، والمرض ، والقوة ، والضعف ، واختلاف الأجواء ، والمناخات ، وتنوُّع الفصول ، والطقوس ، فيحتمل كلَّ ذلك ويتمرَّن عليه ، والعودة إلى الصحة مضمونة للجسم السليم القوي ، والانتصار مكفول لصاحب الرسالة الفاضلة ، المفيدة للبشرية ، والصفات الكريمة العائدة بالخير على الجميع ، وصدق الله العظيم : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ـ ١٤١] .

* * *

ملحق
نصيحة فارس الخوري

لِكُلِّ عَرَبِيٍّ ، وَلِكُلِّ مُسْلِمٍ[(١)]

« نصيحتي لكلِّ عربيٍّ ، ولكلِّ مسلمٍ ، ولكلِّ عاملٍ في الحقل الوطنيِّ ، والسياسيِّ : ألا صلحَ مع اليهودِ ؛ مهما يكن نوعُ ذلك الصلح ومداه . .

فإنَّ أيَّ صلح مع اليهود مهما كان نوعه ، ومهما يكنِ الاسمُ الذي يُعْنَوَنُ به ؛ هو تضحيةٌ بالأمةِ العربية على مذبح الحماقةِ ، والجهلِ ، والمطامعِ الوقتيةِ ، وهو عارٌ يلحق مرتكبَه على مدى الأزمان ؛ لأنَّه

---

(١) فارس الخوري (١٨٧٧ ـ ١٩٦٢) من كبار رجال السياسة في العالم العربي في القرن العشرين ، درس في بيروت ، واستقرَّ بدمشق ، وكان نائباً عنها في مجلس المبعوثان العثماني ، وشارك في تأسيس مجمع اللغة العربية بدمشق ، ودرَّس في معهد الحقوق العربي ، وشارك في عدة وزارات في سورية ، وترأس رئاسة الوزارة ، ورئاسة المجلس النيابي فيها ، له مشاركة في علوم شتى ، حر الرأي ، أصيل الفكر ، قال عنه الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ : إنه مات مسلماً . والله أعلم .

سيكون حتماً بداية القضاءِ على هذه الأمة ، وعلى جميع مقوِّماتها المادية ، والروحية .

ثم إنَّ عقد الصلح مع اليهود سيجعلُ العربَ مسؤولين دولياً عن المحافظة على الوضع الذي سينشأ عن قيامه ، ويفقدهم حريةَ العملِ ، ويجعل من العسير عليهم القيامَ في المستقبل بأيِّ عملٍ يرجى منه صيانة عروبة فلسطين فضلاً عن تحريرها[١] .

ولا يصدقنَّ أحدٌ ما تردِّده دوائر الاستعمار من أنَّ الصلحَ مع اليهود سيقرُّ الأمنَ ، والسلام في الشرق الأوسط ، كما تزعمُ الدول الاستعمارية ، وستضع حداً للمطامع اليهودية في بقية الأقطار الأخرى ؛ لأنّ اليهود سيلجؤون لأساليبَ أخرى في القضاء على الأمة العربية ، (لو تم صلحٌ ما معهم) عن طريق نشر المبادىء ، والآراء ، والعقائد ، والأخلاق ؛ التي تجافي آدابَ العربِ ، وروحَ الإسلامِ ، والمسيحية في هذه الديار ، مما يسهِّلُ عليهم بمرورِ الزمانِ القضاء على الكيان العربيِّ ، وعلى الروح الإسلامية القضاء المبرمَ ؛ الذي لا نهوضَ بعدَه .

فليتدبَّر المسلمون ، والعربُ أمرَهم ، وليقاوموا أشدَّ المقاومةَ كلَّ فكرةٍ لفرض صلح عليهم مع اليهود ، وليستعدوا دائماً ، وأبداً للجولة الحاسمة ، ولو اقتضى الأمرُ من الصبرِ قروناً وأجيالًا . . . »[٢] .

---

(١) كما هو حال الدولة العربية التي ارتبطت بمعاهدات السلام مع إسرائيل .

(٢) فارس الخوري وأيام لا تنسى ، للأستاذ محمد الفرحاني ، ص٣٠٤ـ٣٠٥ .

الفهرس

الموضوع الصفحة

مقدمة الكتاب ٥

المحاضرة الأولى : التربية والأخلاق التي مهَّدت للتخاذل في فلسطين ١٣

المحاضرة الثانية : العوامل الأساسية لكارثة فلسطين ٢١

المحاضرة الثالثة : كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية ٤٩

المحاضرة الرابعة : قارنوا بين الربح والخسارة يا زعماء العرب ٧٩

المحاضرة الخامسة : تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا ١٠٧

المحاضرة السادسة : نظامان إلـهيان للغلبة والانتصار ١٢٧

المحاضرة السابعة : نداء إلى رجال الصحافة والإذاعة والكتَّاب والأدباء وقادة الفكر وزعماء الإصلاح في الأقطار العربية ١٥٧

المحاضرة الثامنة : إزالة أسباب الخذلان أهم وأقدم من إزالة أسباب العدوان ١٦٧

المحاضرة التاسعة : ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي ١٨٥

المحاضرة العاشرة : العاقبة للعرب والمسلمين ١٩٥

ملحق : نصيحة فارس الخوري ٢٢٠